21 يوماً برفقة الحبيب صلى الله عليه وسلم

محمد رسول الله

د. محمد بشناق

تقديم
كريم الشاذلي

21 يوم

برفقة الحبيب ﷺ

21 يوم

برفقة الحبيب ﷺ

الدكتور محمد بشناق

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2020 /5/1388)

239

بشناق ، محمد اكرم

21 يوم برفقة الحبيب صلى الله عليه وسلم / محمد اكرم بشناق

- عمان- المؤلف، 2020

الواصفات: /السيرة النبوية//الغزوات الاسلامية// الآثار النبوية

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN978-9957-8742-1-6

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ *
فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ
رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(التوبة: 128-129)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	أ
شكر وعرفان	ج
مقدمة	هـ
1. السيرة بطعم آخر	1
2. القائد المظفر	6
3. راعي الغنم	30
4. اليتم والحرمان	39
5. معالم العظمة تتشكل	48
6. لحظة تغيير	57
7. حالة خوف	73
8. دار الأرقم	86
9. حالة غضب	95
10. حالة ضعف	107

11. حالة سكينة	119
12. حضارة بمفهوم جديد	128
13. عقلية المنتصر	137
14. حالة هزيمة	143
15. حالة شك	151
16. حالة غيرة	161
17. كش ملك	168
18. يوم الفتح	184
19. أنا بلال	194
20. حالة امتنان	201
21. ورحل الحبيب	211
الخاتمة	221
المراجع	225

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى مقام حضرة الرسول الأعظمﷺ، مقراً بضعفي وتقصيري وقلة حيلتي، وأنىّ لجاهل ومقصر مثلي أن يكتب عن أكرم الخلق، ومقامي أقل وأدنى من ذرة رمل بجوار قدميه الشريفتين. ولكنه الشعور بالواجب أن أنقل ما تعلمت سائلاً المولى جل وعلا أن ينفع به وأن يكون خالصاً لوجهه تعالى. ولا يسعني في هذا المقام إلا تقديم أزكى الصلاة وأتم التسليم لحبيبي ونبيّي ومعلمي وقائدي محمد ﷺ راجياً أن أنال به شفاعته يوم الدين وشربة من يده من ماء الكوثر. كما أوصي بدفن نسخة من هذا الكتاب مع رفاتي، لعله يكون لي حجة يوم الدين، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء: 88 – 89).

الأردن – عمّان

21 شعبان 1441

الموافق2020/4/14

شكر وعرفان

أود أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير لكل من ساهم بجهده وخبرته ومشورته في إنجاح هذا الكتاب، وأخص بالذكر:

د. بلال نور الدين (دكتوراه في الفقه المقارن) والذي قام بتوثيق الحقائق الشرعية والتاريخية والمراجعة اللغوية، وللكاتب المرموق كريم الشاذلي والذي تكرم بكتابة مقدمة هذا الكتاب، والشكر موصول للمهندسة شروق العبسي والتي ساهمت بإضفاء الصور البلاغية والعبارات المشوقة ممّا كان له أعمق الأثر للوصول إلى الصيغة النهائية للكتاب. أسال الله تعالى أن يتقبل منا صالح الأعمال ويلهمنا السداد والإخلاص، والله ولي التوفيق.

مقدمة

طف بعينك في مشرق الأرض ومغربها، لن تجد قوماً إلا ولهم رموزهم وأبطالهم، يحفظون كلامهم ويرددوه، ويروون مواقفهم ويستشهدون بها، ويرفعونهم عالياً في لحظةِ نَصرهم الحاضرة، فيؤكدون لأنفسهم وللشهود أن إرثاً صَنَع حاضراً لهو أحق أن يُتّبع ويُمضى على دربه.

إلا أعظم الناس نبينا وحبيبنا محمد ﷺ ذلك الرجل الذي حوى حكم الأولين والآخرين، وترك بين أيدينا من صفاء حكمته ما يعين العقل، ويطيب القلب، ويهيج النفس على المضي قدماً، الرجل الذي باع نفسه لله، وعرّى الدنيا أمام أعين أصحابه وأعيننا، ما بال سيرته على ما كُتب فيها لم تقف على ملامح عظمته بما يليق به، وما بالنا لم نفهم الرجل بعد؟

نُعظمهُ حفظاً لا وعياً، وندافع عنه بألسنتنا لا بعقولنا، نستتبع ذكر إسمه بالصلاة والتسليم، ولا نتبع سيرته بالفهم والتأمل.

هذا رجل قد غبنه أصحابه قبل أتباعه، وأذاهُ الأقارب قبل أن تفعل الأباعد. فأي اعتذار نحن مدينون به، وأي عزاء هذا الذي يمكن أن يسع حجمَ مصابنا...

من هنا فأنا ممتن للجهد المبرور الذي قام به الأخ والصديق الدكتور محمد بشناق في نَظرِهِ وتأمُّلهِ في سيرة النبيّ الخاتم، والذي سخّر فيه من عُمق عاطفتهِ وزِنة عقلهِ ما جعلنا نتأمل نِتفاً من حياة الرجل الأعظم، ووضع بين أيدينا دروساً نتعلمها من رِحلتهِ الخاصة في سيرته.

متكئاً على حسن بيانه طاف صاحبنا مصطحباً بلال كي يُرشده، وطرح لنا رؤيته الخاصة التي يحق له ولي ولك أن نمتلك مثلها، وسخّر عِلمه في مجال الطب التلطيفي والروحاني كي يُحلل بعض الأحداث والمواقف تحليلاً مغايراً، ورغم كثير امتناني لِجهده الطيب إلا أني أرى أن مقام النبي لا تكفِهِ صحائف الدنيا تسويداً، وعِبر أيامه تحتاج إلى حِكمة لقمان وفِهم سُليمان ورَوِية عيسى وعَزمَ موسى كي تلحق بها.

غير أنّه جُهد المُقِل، وكلنا قليل بين يديه، غير أن دِرهم قد سَبق ألف دِرهم، ورُبّ كلمةٍ صادقة النيّة دفعت بصاحبها إلى عليين، فالله أسأل أن يفتح بهذا الكتاب عقولاً، ويضيء قلوباً، ويرفع في الفردوس كاتبه، ولا يحرمنا وإياكم حكمة الفهم والتدبر.

ولا حرمنا فضل الصلاة والسلام على سيد الخلق وسيدنا..

كريم الشاذلي

السيرة بطعم آخر

ألسنة اللّهب الحَمراء تتراقص مع نسيم اللّيل، وأعمدة الدّخان تتصاعد إلى السماء تكاد تصافح النجوم. قِطَع الحَطَبِ تتكسر وتحترق، ورائحة الخشب تملأُ الفضاء الرحب في مشهد مُهيب يسحرالألباب.

ما زِلتُ في الجلسةِ نفسِها أَحتسي فنجاناً من القَهوة العربيّة الأصيلة، غارقاً في أفكاري، شارِدَ الذهنِ مُشتت التركيز. لقد دخل الجميع إلى خِيمهم وخَلدوا إلى النّوم. كانت ليلة طويلة من الحديث والنقاش سَمِعت فيه لهموم علياء وليلى ورائد، بثوا فيها همومهم وتحدثوا عن التجارب المرّة التي واجهوها والمِحَنِ التي خاضوها.

العشرات من الأسئلة تكررت ونحن جالسون حول إبريق الشاي على الحطب. لماذا.. وكيف.. وماذا لو؟ أسئلة كثيرة حيّرت قلبي وأنا أبحث عن جواب أشفي فيه غليلهم وأداوي جراحهم. لكل واحدٍ منهم قصة وحكاية. تجارب مريرة عاشها أصحابها وتمضي بهم الأيام في لُجَّةٍ من مشاعر الخوف والألم والحزن

والوحدة. لا أدري كيف غَلَبني النُّعاس وأَسنَدتُ رأسي إلى وسادة وما هي إلا لحظات حتى غَططتُ في نوم عميق.

رأيت نفسي في المنام وأنا أسير في تلك الصحراء وسط كثبان الرمل تحت أشعة الشمس الملتهبة ومعي عَصاي أتوَكأ عليها، وقد انهارت قِواي وأخذ مني التعب والعطش والجوع كلَّ مَأخذ.

مِن خَلف إحدى التلال رأيت فَرساً أبيضَ اللّون يعدو باتجاهي، وقد اعتلى صَهوتهُ فارس طويل القامة، أسود اللّون، مُهيب الطّلة، حاد الملامح. إقترب مني الفارس ودار حولي دورتين إلى أن توقف الفرس وترجَّل ذلك الفارس وتقدم نحوي. ثم اقترب مني وهو يَنظر إليَّ نظرات حادةٍ ووضَع يَدهُ على كتفي. نَظرتُ إليه بِجَزع وخوف ولزِمتُ الصمت. ثم قال: السلامُ عليكم ورَحمةُ الله وبركاته.

قلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

بَقِيَ الرجل صامِتاً ينظر إلى عينيّ باستغراب. قُلت له: مَن أنتَ وماذا تفعلُ هُنا؟ فقال: ألا تعلم من أنا؟ أنا بلال بن رباح!

لم أصدق ما رأيتُ وَسمعت. أصابني الذهول والفرح، وغلبتني الدّهشةُ، وبَدأتُ أُتمتم.. بلال.. سيدي بلال؟! بلال بن رباح؟! أول مؤذن في الإسلام؟!

فقال: نعم يا مُحمد. أنا بلال بن رباح.. وقد سَمِعتُ حديثكَ مع رفاقك تلك اللّيلة واطلعت على ما دار في بالِكَ من أسئلةٍ حيّرت فؤادُكَ وفِكرك، ولهذا جِئتُ يا محمد، وأريد أن أصحَبك إلى رحلةٍ عجيبةٍ ترى من خلالها المشاهد والقصص وتستخلص الدروس والعِبر. إركب ورائي يا محمد.. إركب!

وما هي إلا لحظات حتى انطَلَقَ بنا ذلك الفرس القويّ الأصيلُ، ومضى ينهب رِمالَ الصحراء وينطلقَ بِسرعةٍ نَحو هدفٍ يعرفهُ تماماً.

نظر إليّ بلال وقال: أتدري يا محمد؟ لقد تشرفت بِصُحبةِ رَسول الله ﷺ، سيدِ البشرية وإمام الأنبياء، وعَرَفتهُ رجلاً وقائداً ومُعلّماً ورَسولاً.

عجيب أمرُكم مَعشر المسلمين في هذا الزمان، تَبحثون عن حُلول وتتبعون نماذجَ وأبطال وقصصاً مُستوردة من الخارج؟ حقاً؟؟ حقاً وأنتم تَملكون سيرة سيد بني آدم، وأعظمَ قائِدٍ ومُعلّمٍ ومربٍّ عَرفتهُ البشرية؟!! لقد دَرستم سيرة الرسول ﷺ، وركّزتم على ما مر بها من أحداثٍ وغزواتٍ ومعارك، ولكنكم لم تحاولوا يوماً أن تقتربوا أكثر منه كإنسان.

هل تظن أن كل تصرفاته وردّاتَ فِعلهِ مع صناديد قُريش وأعدائه وخصومه كانت وحياً من السماء؟ لم يَختر الله تعالى هذا الرجل بالذّات من بين كل البشريةِ لتلك الرسالة إلا وقد توفرت فيه من خِصال الرجولة والمروءة ومعايير الحِكمة والذكاء والقوة ما لم يتوفر لأحد من البشر. صحيح أنه نبي ورسول يعمل بتوجيه ووحي من السماء، إلاّ أنّ الكثير من أفعالهِ وقراراتهِ كانت اجتهاداً مِنه. وإلاّ لِما جاءَ الوحي بعدها مؤيداً أومعاتباً ومصححاً. لا يمكن أن نَغفل عن دَورهِ كشخصية عبقرية مميزة في أي موقف مرَّ به طيلةَ مسيرته.

أنت اليوم بِحاجة إلى دراسة وتمعن في معالم شَخصية هذا الإنسان.. ما هي قِيَمِهِ التي تُحدد أفكاره وتُسيطر على مشاعِرِهِ وتُحدد سُلوكه؟ كيف كان يُفكر في اللّحظات والتحديات الصعبة التي واجهها؟ كيف تعامل مع مشاعر الحُزنِ والخَوفِ والوحدةِ والغضب؟ على أي أساس اتّخذَ القرارات الحاسمة طيلة سيرة حياته؟ وما العوامل التي ساهمت في بناءِ تلك الشخصيةِ المميّزة؟ وعندها فقط، عندها سوف تَدخل عالم هذا الإنسان العظيم وتتعرف عليه، وسوف يتبرمج عَقلك وِفقَ طريقة تفكيره، وتتعلم كيف تأخذ قراراتك وتواجه التحدّيات بِكّل عَزمٍ وقوةٍ وأمل. سوف تعود إلى أصدقائك وتعلمهم منهجية تفكير وسلوك مُستلهمةً من سيرة وقصص هذا الإنسان العظيم.

القائد المظفر

بدأت الرّحلة.. الفرس الأبيض الأصيل يعدو بسرعة، ويشق سكينة الصحراء بحوافره. الغُبار يتطاير من خَلفه، وهو ماضٍ في طريقهِ وكَأنما كان يعلم طَريقه جيداً وقد حدّد هَدفهُ وغايته.

كانت الرياح العاتية تهبُّ في وجوهنا، تتطاير معها عمامة سيدي بلال وعباءته، وتتأرجح لها ذَيلُ الفَرس وتتمايل. وكنت أنا على حالي مُتشبثاً بِسَيدي، أُراقب المشهد من حولي بعينين فَضوليّتين تارةً، وأَسرحُ بخيالي تارةً أخرى، والفضول والحماس يملآن قلبي ووجداني.

بين الفينة والأخرى، كان صَوتُ صَهيل الحصان يتعالى ويخرجني من شرودي، ويعيدني إلى الواقع الذي ما زِلْتُ لا أصدق كيف أني أصبحت جزءاً منه!

كان سيدي بلال صامتاً مُعظم الوقت، لم يتسنَّ لي وأنا خَلفَهُ أن أراقب ملامح وجهه، لكني كنت متيقناً من أنه كان غارقاً في بَحرٍ من الذكريات، منتشياً بِعَبق ماضٍ جميل، أغبطه عليه. كلُّ الذي كنت أسمَعه منه همهماتٍ أظنها كانت صلواتٍ على

النبيﷺ ، أو تنهيدات أخرى، لا أحسبها إلا لَواعِجَ مُحبٍّ قد نال الشوق من قلبه ما نال.

حاولت مراراً أن أنسلخ من المشهد، لأراه عن بعد، فَبدا لي بديعاً إلى أبعد الحدود.

فرس أبيض يمتطيه فارس مغوار، تفور قسمات وجهِهِ بهاءً ونوراً، يمضي بعزمٍ إلى هدفهِ وكأنّما بسطت له الأرضُ مناكِبها..

أمّا أنا، فكُنت مثل طفلٍ قابلَ للتوِّ البطلَ الأسطوري الذي بَحث عنه طويلاً، وتشبث به بحرصٍ، خوفاً من أن يضيع منه أوعنه!

وبينما أنا على حالي وإذ بسيدي بلال يلتفتُ إليّ مُتسائلاً: ها قد وصلنا محطتنا الأولى.. هل أنت مستعد؟

فسألت بدهشة: مستعدٌ لماذا؟

فأجابني باسماً: للدّرس الأول!

قلت مرتبكاً: أنا جاهز!

نزلنا عن الفرس، فسار به حيثُ جِذع نَخلةٍ قريبةٍ ورَبَطَهُ ثم قفل راجعاً صوبي. أخذ بيدي ثم صعدنا كثيباً رملياً ضخماً..

كانت خَفقات قلبي تتعالى كلما قاربنا القِمة، كانت همهمات خافتة تصل إليّ من خلف الكثيب.. كنت أتساءل ترى ماذا يحدث خلفه؟ ولِمَ أخذني بلال إلى هذا المكان المقفر؟!

وما هي إلا ثوانٍ، حتى انكَشَفَ لي المجهول وتراءى لعينيَّ مشهدٌ عجيبٌ في غاية الروعةِ والبهاءِ والجلال. جموع غفيرة من البشر تتجمع في صعيدٍ واحد، كلُّهم يرتدون ملابِسَ بيضاء وقد بدوا عن بعد كَسرب من حَمامٍ أبيض حطَّ رحاله على صعيدٍ أملسَ مستوٍ، فَرَسَمَ لوحةٍ ملائكيةٍ غاية في الطُهر والنقاء.

أخذتني الدهشة ودفعني الفضول للإقتراب من المشهد أكثر، فما كان مني إلا أن صعدت خطوتين إضافيتين باتجاه القمة، لأجد نفسي على قِمة الكثيب تماماً، قبالة تلك الحشود العظيمة.

كانوا رجالاً ونساءً، أطفالاً وشباباً وكهولاً. وعلى الرغم من التباين الواضح للهيئات والمنابت والأعراق والألوان، إلا أنّ منظرهم بدا لي وكأنّهم عائلةٍ واحدةٍ يسودها جو عجيب من الألفة والمحبة والإنسجام. الجميع في حالة صمت وإنصات وعيونهم مُصوّبة باتجاه تلة يعلوها رجل. كانت عيونهم تقطر شوقاً ومحبة،

والدموع تنهمر هيبةً وإجلالاً. مشهدٌ سماويٌ خالدٌ يأسِر القلوبَ وتَقشَعر لهُ الأبدان.

تملكتني رغبة جامحة في الإقتراب أكثر ودفعني الفضول لأتعرف على ملامح ذلك الرجل وأسمع حديثه. تَغلبتُ على نوازع التردد والرهبة واندفعت أُزاحم جموع البشر وأَشق طريقي تجاهه، والجَميعُ يرمقني بنظرات استغراب وكأنهم يتساءلون من هذا الغريب الذي ظهر فجأة واقتحم عالمنا.

وإذ برجل من خلفي يضعُ يدهُ على كتفي ويقول: إلى أين يا صديقي؟ فالتفتّ خلفي وإذا به بلال. فقلت بلهجةٍ مرتجفةٍ: أُريد أَن أَراه. أريد أن أسمع ما يقول.

ازدادت ابتسامته العذبة اتساعاً وأمسك بيدي قائلا: وأنا أيضاً!

سِرنا سَوياً وشَققنا الصُفوفَ حتى دَنَوْنا مِنهُ وتمكنّا من رؤية ملامِح وجهه وسماعَ حديثه.

كان المُتحدث رجلاً مربوعَ القامَةِ، أَدعَجَ العينين، لهُ وجهٌ أبيض مشرب بالحُمرة، تُزينه لِحية كثيفة قد غزاها الشيب، فزادهُ وقاراً وجلالاً.

بدأت أتمعن في ملامح وجهه، فَسَرَت في جسدي قشعريرةٌ عجيبة، وبدأ قلبي يخفقُ بشدةٍ أمام هذهِ الطّلة البهيّة والتي جمعت كلَّ محاسن الجمال والبهاء والهيبة والوقار.

نظرتُ إلى بلال أستفسر منه عن هوية هذا الرجل الذي أَسَرَ قلبي وجوارحي، إلا أنّ بلال كان مفصولاً تماماً عن الواقع، كان بلال غارقاً في مشاعره وعيناه ترمقان الرجل بنظرات تنمُّ عن الحبِّ والإعجاب والإجلال. بعد لحظات، وكأنما انتبه بلال وعاد إلى عالمنا، ونظر إليَّ والدموع تترقرق في عينيه، وقال معاتباً: وَيحَك! ألم تعلم من هو؟ هذا هو مُحمد بن عبد الله، حبيبي ومُعلمي ورسولي عليه الصلاة والسلام.

لم أستطع تدارك المَوقف ولا ضبط مشاعري. سَرَتْ القشعريرة في أوصالي وازداد قلبي في الخفقان حتى كِدتُ أسقط على الأرض مَغشياً عليّ.

أهذا رسول الله؟؟ حقاً؟؟

لطالما دعوتُ الله أن أراه، وها هي دعوتي قد أستجيبت! صدّق يا عقلي، وطِرْ فرحاً يا قلبي، وانظري بِنَهم يا عينيّ. أمّا أنت يا روحي فَانْهَلي من طُهره ما يكفي حتى يرتدَّ إليك رشدك، فأنا أقف الآن قبالة سيدي وسيد البشر أجمعين، محمد بن عبد الله، مُعلمي، قُدوتي، مُلهمي، حَبيبي، نَبيي، رَسولي وشفيعي يوم الدين!

لم أعد إلى صوابي إلا بعد أن طوّقني سيدي بلال بذراعه قائلاً: نَحنُ الآن في حُجة الوداع، في السنةِ العاشرةِ للهجرة، وكما ترى ها قد اجتمع المُسلمون من كل حَدبٍ وَصوبٍ على صعيد عرفة بِرفقةِ سيد البشرية، عليهِ الصلاة والسلام.

سوف تشهد بنفسك اليوم يا صديقي معاني القيادةِ الروحانيةِ في أسمى معانيها وأروع تجلياتها. هذا اليوم تحديداً والذي بلغ فيه قائدنا العظيم ذروة المجد واعتلى فيه قمة التمكين، يُعدُّ من أهم أيامه عليه الصلاة السلام.

أنظر معي يا صاحبي إلى هذه الجموع الغفيرة والتي تقارب زهاء مائة ألف نفس. تأمل كيف تَجَمّعوا في هذا الصعيد الطاهر، صعيدَ عَرفة في مكة المكرمة، بعدما انتشرَ الإسلام في الجزيرةِ العربية، وخضع له الجميع بالولاء والطاعة.

أترى ذلك الرجل المسن؟ إنهُ أبو سفيان بن حرب، ومن حوله خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وصهيب الرومي وعمار بن ياسر وأسيد بن حضير.

لقد أسقط هذا الرجل جميع الاعتبارات العِرقية والفوارق الإجتماعية والتمايز الطبقي، وصنع منهم أمةً واحدةً سواسيةً، لافرق بين عربي وعجمي ولا أبيضَ ولا أَسودَ إلا بالتقوى. والمشهد الذي أمامك ما جاء إلا لتأكيد هذه الفكرة والتي لم تعرفها العرب من قبل.

- ما أَجملَ ديننا وما أعظَم نَبينا عليه الصلاة والسلام.

- هل لك أن تَتَخَيّل يا صديقي حجم التضحيات والجهد الذي على القائد أن يبذلهُ ليقطف ثمرةً مثل هذه؟ هل لك أن تُدرك حجم العَناء الذي تَكبّده عليه الصلاة والسلام طوال سنواتِ البعثةِ

كُلها ليقف مثل هذه الوِقفة اليوم؟ لقد سقى نبينا الكريم رسالة الدين من عُروقِ قَلبِهِ، وأسرج فتيلها من زوادة روحه، صَلواتُ رَبي وسلامَهُ عليه. جزاه الله خير ما جزى نبياً عن أمته.

أتدري يا صديقي، قد يقول قائل: إننا لو قلبنا صفحات التاريخ، سَنجد الكثير من سِير القادة الأفذاذ، والمُفكرين والمجددين الذين غيروا مسار التاريخ، وسطروا المجد بماءٍ من ذهب، لكنني على يقين بأنّ ما أَنجزهُ رسولنا عليه الصلاة والسلام لم يفعله أحد من قبل، ولن يضاهيهِ أحدٌ مهما طال عمر البشرية.

- ما الذي يميز تجربة نبينا في الإصلاح والتغيير؟

- لقد أرسى قوائم حضارة عظيمة في غضون ثلاث وعشرين سنة فقط. بإمكان القادة الأفذاذ أن يتركوا سجلاً ضخماً من الإنجازات في مثل هذه المدة، لكن ما يُميز إرثَ النبي عليه الصلاةُ والسلام أنه كان متكاملاً وشاملاً.

- لقد غطى مناحي الحياة كلَّها وترك لنا ما يُرشدنا في حياتنا بدءاً بسنته عليه الصلاة والسلام في شُرب الماء وانتهاءً بكيفية

إدارة المُؤسسات والمُجتمعات. لقد ترك لنا منهجاً ضخماً عظيماً، لكننا ما أحسنا قراءته.

- ولا أحسنتم توظيفه أيضاً، نحن عندما نتحدث عن النبي محمد ﷺ كإنسان فضلاً عن كونه نبياً كريماً اصطفاه الله لتبليغ رسالته، فنحن نتحدث عن مفكر ملهم ومصلح اجتماعي وسياسي مُخضرم وقائد فذ، إنسان يمارس حياته الشخصية والزوجية والاجتماعية. لا يمكن أن تشهد نموذجاً جمع هذه الخصال جميعها، ولا قائداً ينال محبة واحترام أتباعه مثلما حصل مع هذا الرجل الذي تراه أمامك!

إننا يا صديقي نشهد اليوم ظاهرة فريدة لن تتكرر في التاريخ. ولأجل هذا نزلت في هذا اليوم هذه الآية الكريمة:

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾(المائدة: 3)

لقد بدأ رسول الله بالكلام. دعنا نستمع إلى خطبته.

" الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مُضل له ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس اسمعوا مني، أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت اللّهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وإن ربا الجاهلية موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون وقضى الله أنه لا ربا. وإن أول ربا أبدأ به عمي العباس بن عبد المطلب.

وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مئة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

أما بعد أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم، أيها الناس إنما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يَحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليوطئوا عدة ما حرّم الله فَيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

أما بعد أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق. لكم أن لا يواطئن فرشهم غيركم، ولا يَدخُلنَ أحداً تَكرَهونهُ بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، فإن فَعلن فإنّ الله قد أَذِنَ لكم أَن تَعضِلوهن وتَهجروهُن في المضاجع وتَضربوهُن ضَرباً غير مُبرح، فإن انتهين وأطعنكم فَعليكم رزقُهنّ وكِسوتَهنّ بالمعروف، **واستوصوا بالنساءِ خيراً، فإنهنّ عِندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بِهُنّ خيرا. ألا هل بلغت....اللهم فاشهد.**

أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يَحل لامرئ مال لأخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

فلا ترجعن بعدي كفاراً يَضربُ بَعضكم رِقابَ بعض، فإني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده، كتاب الله وسنة نبيه، ألا هل بلغت... اللهم فاشهد.

أيها الناس إن ربّكم واحد وإن أباكم واحد، كُلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لِعربي على عجميّ فضل إلا

بالتقوى.ألا هل بلغت..اللهم فاشهد. قالوا: نعم. قال فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس إن الله قد قسّم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من ثُلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنةُ الله والملائِكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرفٌ ولا عدل. والسلام عليكم."

قُلت في نفسي بعد انتهاء الخطبة: لعلها أقصر خطبة سمعتها بحياتي، خطبة قصيرة وموجزة، لم تستغرق سوى بضع دقائق. لكنها زاخرة بالمعاني ومليئة بالدروس والعبر.

تأملت كلمات الخطبة كثيراً محاولاً فهم دلالاتها العظيمة وحاولت أن أستنبط من كلامه عليه الصلاة والسلام فقه الأولويات. حاولت أن أدرك أهمية الدعائم الرئيسية التي أولاها هذا القائد المحنك اهتمامه وسلط الضوء عليها أمام هذه الحشود قبل رحيله.

حَلّلت الكلام حرفاً حرفاً، ليقيني أن لكل كلمةٍ مغزى ولكلِّ وصيةٍ معنى. فلا شك أنها كانت خطبة استثنائية بكل المقاييس، في توقيتها وعِظم دلالاتها وطبيعة الحضور في ذلك اليوم تحديداً.

في اللحظةِ التي رأيتُ فيها الحبيب المصطفى يستهل خِطبته، شَعرتُ وكأني أدرك ما الذي يدورُ بخاطره في تلك اللحظات. اليومُ يا سيدي يا رسولَ الله تقف أمام هذه الجموع الغفيرة، قُرابة مائة ألف إنسان خضعوا لك بالسمعِ والطاعة، وآمنوا بك واتبعوك. لعلك تفكر في المضمون المناسب لتخاطب أمة فتية جاهزةً للإنتشار وفتح العالم، خطاب يناسب كل من حضر اليوم بتنوع ثقافاتهم ووعيهم ومنابتهم وحتى درجة إيمانهم. فمنهم من آمن بك وسار معك منذ البداية، ومنهم من دخل حديثاً في دين الله. لعلك تُدرك أنّك راحلٌ عما قريب وهذه آخر فرصةً لتلقى بها أمّتك، والخطاب اليوم خطاب مودِّع.

كُنت أتَلمَّس حِرصهُ عليه الصلاة والسلام في التنبيهِ على ما يحفظ لهذه الأُمة صلابتِها وعِزّتِها، فالخطبة جاءت في وقت مفصلي ودقيق، وقت أشبه ما يكون بعتبة فارقة بين الإنغلاق

والإنفتاح، بين الضيق والسعة، بين الإنكفاء والإنتشار. وقت تودع فيه هذه الأمة مُلهِمُها ومُرشِدُها وربّان سفينتها، وعليها من اليوم فصاعداً أن تدير شؤونها بنفسها، مقتفية نهجه النبوي ومُتتبعة نصائحه المُحمدية.

هذا كله قد صاغهُ النبي عليه الصلاةُ والسلام بإيجاز. ولا عجب، فقد أوتي من جوامع الكلم ما أوتي وعودنا دوماً على ما قل من الكلام ودل عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.

لاحظ سيدي بلال شرودي فاقترب مني قائلاً: إلى أين وصلت؟

- لم أبعد كثيراً.. أُفكر في المِحور الأساسي والغاية من هذه الخطبة الموجزة والبليغة.

- وإلى ماذا توصلت؟

- توصلت إلى مفاتيح البقاء والتمكين لأي أمة. لعل هذا هو بيت القصيد في تلك الخطبة.

- جميل، وأهمها؟

- قيمة التعايش وقبول الآخر.

- أحسنت يا صديقي. هذا تماماً ما كُنت أود أن أُحدثك عنهُ حينما اصطحبتك معي إلى هنا. الفكرة أن تشاهد بأم عينيك وأن تسمع بأذنيك وصايا نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام حول هذه القيمة تحديداً. أردتك أن تشهد الواقعة المهيبة العظيمة التي قيلت فيها هذه الوصية تحديداً، لتعلم الدوافع وراءها، ولتدرك أهمية ذكرها في جمع غفير متفاوت كالذي رأيت.

- كان الجمع يضم قبائل عربية عديدة.

- تماماً.. لهذا اختار نبينا التنبيه إلى هذه القيمة تحديداً، فكما تعلم جيداً أن النزعة القبليّة والعصبيّة العشائرية كانت متجذرة في الثقافة والعقلية العربية، مما أدى إلى نشوب الحروب وإراقة الدّماء في الجاهلية. ولعلّ هذا هو مَكمن الخطر. فقد لاحظ عليه الصلاة والسلام الفتنة تطل برأسها في عِدّة مواقف حتى مع أقرب الصحابة الكرام. فما بالك إذا انتشر الإسلام ودَخل الناسُ في دين الله مِن كُلِّ مَنبتٍ وعرق ولون؟ ما هو صمّامُ الأمانِ للحفاظِ على وحدةِ الأمةِ واجتماع كلمتها في هذا الحال؟ كان كلامُهُ عليه الصلاة والسلام يحمل معانٍ دفينة، تغرس في نفوس

السامعين القناعة بأن التمكين لن يحدث إلا بالوحدة، والوحدة لن تحدث إلا إذا ترسخت قيمة التعايش فيما بيننا وتقبل الآخر برحابة صدر واقتنعنا بأن الطائفية والقبلية وِعاء صغيرضيق لا يسعنا، في حين أن وِعاء الإسلام يتّسع لنا جميعاً. وفي هذا السياق، حرص هذا الرسول والقائد والمربّي عليه الصلاة والسلام على أهمية التعايش بين الرجل والمرأة. فقد جاء في زمن ظلمت فيه المرأة، فسبق العالم كله في صون حقوقها واحترام مكانتها وحريتها.

- كلام في الصميم. ولعلّ من يتأمل شعائر الإسلام فسوف يلاحظ أنها تعزز تلك المعاني التي ذكرت. في الصلاة نقف صفاً واحداً، الفقير بجوارالغني، والسيد أمام الضعيف، والعربي والعجمي كذلك. في الحج نشهد الآن انصهار كل تلك الفوارق الاجتماعية حتى في الهيئة والملبس. نحن الآن نشهد أمة واحدة متماسكة ومتلاحمة.

- أحسنت يا صديقي. لكن عظمة الإسلام لا تكمن فقط في مساواته بين السيد والعبد، بين الغني والفقير، وبين العزيز

والذليل، إنما تكمن في دعوته الصريحة للتعايش بحبٍّ وتقبل الآخر بانسجام.

هل لاحظت ذلك المزيج الرائع من سادة قريش وعبيدها، لقد ساوى الإسلام بينهم، وأوقفهم في صعيد واحد، يضع أحدهم يده بيد الآخر متناسياً الماضي الجاهلي بما حوى.

أنظر إلى عِكرمة وسُهيل بن عمرو وأبي سفيان وقد اعتنقوا الإسلام حديثاً جنباً إلى جنب مع سلمان الفارسي وصهيب الرومي وأبي ذر الغفاري، أنظر إلى البشر من حولك من شتى الأصول والمنابت والأعراق، منهم الغني والفقير، السيد والضعيف، الأبيض والأسود في مكان واحد وبثوب واحد. جميع الألقاب والمظاهر سقطت ولا تكاد تميز بينهم، كلُّهم يُوَجّهُ وَجّهَهُ نحو الواحد القهار.

- نعم لقد لاحظت. لكن عندي سؤال.
- تفضل يا صديقي.

- كان رسول الله ﷺ يشعر بِدنو أجله حينما ألقى خطبته هذه، فلماذا لم يتطرق لأمر الفتوحات والجهاد وانتشار الإسلام من بعده؟

- سؤال مهم، إجابته هي الدرس الأول لنا يا محمد. كانت الغاية من هذه الخطبة هي إرساء قيم كبرى تحفظ روح الإسلام وحياته. وما كان الجهاد في سبيل الله إلا في سبيل تحقيق تلك القيم. نبينا الكريم في هذه الخطبة لم يتطرق لأي من الشعائر التعبدية، لأن الشعائر كلها إنما جاءت لإرساء القيم والأخلاق وغَرسِها عميقاً في النفوس. ورسول الله يعلمنا هنا أن نلتفت إلى مقاصد التعبد لا إلى شعائره، فما الجدوى من إقامة صلاة وإيتاء زكاة وحج بيت إن لم تنعكس سلوكاً في شخصية صاحبها. نحن نتحدث عن ثقافة تَجْمَع بين الوعي بالذات والإرتقاء بالنفس، وبين التعايش مع الآخر وبناء مجتمع متلاحم تحت مسمى الأخوة الإسلامية. إن أرادت أي أمة البقاء والتمكين عليها أن تحافظ على منظومة القيم العليا التي آمنت بها، وهذا هو مربط

الفرس. أما الشعائر التعبدية فوجدت من أجل التذكير المستمر بهذه القيم وغرسها وتثبيتها.

تنهدتُ بعمقٍ وبدا لي أنّ عقلي الفضولي لن يكفَّ عن الإستفسار والإستفهام. فبادرت بالكلام متسائلاً: لكن لماذا لم تصمد منظومة القيم التي غرسها النبي ﷺ طويلاً من بعده. لقد شهد الإسلام بعده وقائع كثيرة تَدلّ أن التعايش قد اندثر، وأن القبلية قد عادت، وأن الطائفية قد أطلّت برأسِها من جديد؟

- تقصد حُروب الردة وما تلاها من خِلافات بين كبار الصحابة؟

- نعم.. وغيرها الكثير ممّا حدث في العصور اللّاحقة، كالخلاف بين معاوية وعلي رضي الله عنهما في مَوْقِعَة الجمل وحَرب صفين، والعصر الأموي والعباسي والعثماني والأندلسي وحتى يومنا هذا. لدينا الكثير من القِصص والتي تَروي أخباراً عن التنافر والتفرقة، والتي أدّت إلى نشوب القِتال وإراقَة الدِّماء بين المسلمين أنفسِهم، بدوافع عنصرية أو طائفية أو عرقية.

- هل تعلم يا صديقي أنّ الطائِفية كانت موجودة حتى في حياة النبي عليه الصلاة والسلام؟ أتذكر قصة " دعوها فإنها منتنة"؟ حتى الصحابة الكرام مروا بلحظات ضعفٍ نسوا خلالها تلك القيم، بل وأوشكوا أن يتنادوا للقتال وشرعوا سيوفهم في وجوه إخوانهم في الدين، فسارع النبي العظيم مُذكراً إياهم، فعادوا إلى رشدهم. تخيل أن قيمة التعايش كانت مهددة حتى في حياته عليه الصلاة والسلام! وهذا لا يتنافى مع ما قلته لك.

- كيف؟!

- من قال أن الإسلام جاء لينشئ المدينة الفاضلة؟ من قال أن مسيرة الأمة المسلمة يجب أن تخلو تماماً من أي عثرات أوأخطاء أومحن؟ المسلمون بشر يا صديقي، ومن الطبيعي أن يخطئوا، ولا غرابة أن ينحرفوا عن المسار استجابة لنداءات نوازع النفس الأمّارة بالسوء. وهذه الأخطاء هي أكبر دليل على أنّ النجاة لن تكون إلا بتمثل تلك القيم العليا قناعةً وسلوكاً.

وحتى نكون منصفين، دعنا نرى الصورة الكاملة سوياً، بعيداً عن تلك المحن وفترات الضعف التي مرت بها الأمة المسلمة، ألم

تخبرني أمس أن الإسلام انتشر من الصين شرقاً حتى الأندلس غرباً؟

- بلى.

- ألم تخبرني أن هذه الحضارة العظيمة تقبلت الناس بكافة أعراقهم وتنوع ثقافاتهم، ورحّبت بالعظماء والقادة والفاتحين والعلماء من شتى الأُصول والمنابت فكان منهم البخاري ومسلم وإبن سبويه والأصمعي وإبن سينا والرازي وطارق بن زياد وصلاح الدين وقطز؟ ألم تنصف تلك الحضارة المرأة، فولّتها مناصب في الدولة والتعليم وكافة الميادين. ألم تتعايش مع اليهود والنصارى ومنحتهم الأمان والعدل والمساواة؟

- بلى.

- يا صديقي، لقد سَرَت تعليمات هذا القائد المُلهم ووَصَاياه في عُروق هذه الحضارة فمنحتها الحياة والإستمراية في وقت كانت فيه الحضارات الأخرى غارقة في رفض الآخروالظلم والطغيان. وقد أسَّس هذا الفكر العبقري منهجاً فريداً وثقافة مميزة أذابت كلَّ الحواجز الإجتماعية والعرقية والطائفية وصنعت منها أمةً

عظيمة. وسوف يعود للأمة مجدُها إن شاء الله، إن هي عادت للأصول التي قامت عليها. فمهما شهدت وستشهد من تجاوزات ونكسات إلا أنها حتماً ستعود، لتحتضن الكلَّ وتتعايش مع الكلِّ وتسع الكلَّ.

أنا أُجزم يا صديقي أنّ مبدأ التعايش ليس مُجرد فكرة أو نظرية، بل فلسفة إسلامية بامتياز، محفورة في ثقافة هذه الأمة وفكرها وضميرها ووجدانها.

انتهى حديث بلال، وبَقيتُ في مكاني وأنا أُراقب سيد البشرية في مكانِه، وأُحاول أن أملأ عيني بتلك الطلة البهية. هذا الرجل الذي بدأ وحيداً وتحدى العالم كلَّه، ويقف الآن ويتحدث عن أُمة ورسالة وشريعة وقيمٍ عليا. لا شكَّ لدي أن وراء تلك الشخصية الوديعة المتواضعة والبسيطة الكثيرَ من الأسرار التي ساهمت في وصوله إلى هذا المكان، وراءها عبقرية في التفكير، حكمة في الأداء، قُدرة عجيبة على احتواء المواقف وضبط الذات.

خذني معك يا بلال لعلي أنهل من منابع تلك الشخصية العظيمة، خذني يا بلال فوالله لم نعطِ هذا الرجل حقَّه. خذني

فقلبي اليوم يؤلمني ولعلي أجد الدواء المعافي والجواب الشافي قرب الحبيب عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

راعي الغنم

أشرقت شمسُ صباحِ يوم جميل، وأخذت تُسرح شعرها الذهبي الجميل بتأن ودلال، ففاضت على الدنيا بالدفء والضوء والبهاء مُعلنة بداية نهار جديد. شعور غريب بالسكينة والطمأنينة يساورك وأنت ترقب حالة الإنسجام والبهاء التي تتشكل من ألوان الطبيعة من حولك. لون السماء الأزرق الصافي يعانق رمال الصحراء الصفراء، يتخللها خطوط متعرجة وبديعة شكلتها الهضاب والتلال البعيدة بلونيها الأسود والرمادي. نسيم الصباح يداعب وجهك ويمنحك حالة عجيبة من الانتعاش والنضارة.

استيقظت أنا وسيدي بلال فجراً، وبعد أن صلّينا وقرأنا ما تيسر من القرآن، اقترح عليّ أن نسير صَوبَ مَكان جميل يعرفه، فوافقت على الفور دون أن أسأل عن التفاصيل. سرنا ما يقارب الساعتين، تجاذبنا خلالهما أطراف الحديث، حدثته عن أحوال الأمة ومجريات العصر، شاركته بعضاً من تجارِبي وقصص حياتي. وحينما أخذ منا التعب كلَّ مأخذ، جَلست أنا وهو في ظل نخلة شاهقة، بانتظار المفاجأة التي حضَّرها لي بلال.

وبينما نحن على هذا الحال، ها أنا ذا ألمح في الأفق طَيفَ قطيع غنم قادم يقوده راعٍ برفقته طفل لا يتجاوز الرابِعةَ من عمره. حينما اقتربا أكثر منا، وبدت صورتهما أوضح، ومعالمهما أجلى، نهض سيدي بلال من مكانه متأهباً وصوب نظراته نحو الغلام قائلا: ذلك الغلام .. أنظر إليه جيداً!

أخذتني اللهفة والشوق لأكتشف السر بنفسي وبدأت أمشي بسرعة صوب ذلك الغلام، وسيدي بلال يمشي خلفي يراقبني، كان الغلام وسيماً، بهيّ الطلعة، ذا وجه مستدير ناصع البياض، شعره أسود داكن، ويميزه عينان تلمعان وابتسامة مشرقة تسحر الألباب. كان الغلام يساعد الراعي ويلاحق الغنم ويقفز بكل جد ونشاط، تبدوعلى محياه علامات السعادة والحماس.

تأملته طويلاً، متسائلاً أين تكمن المفاجأة. اقترب مني سيدي ووضع كفه على كتفي قائلا :

- تتساءل أين المفاجأة، أليس كذلك؟
- بلى.
- أتعلم من هو هذا الغلام؟

- لا ريب أنه ليس طفلاً مثل باقي الأطفال.. لعله ملك تمثّل على هيئة إنسان. لا أخفيك، لقد أَسَرَهذا الطفل قلبي ومَلك أحاسيسي ووجداني. من هذا الطفل يا بلال؟

- هذا هو محمد بن عبد الله. قالها سيدي بصوت تغالبه دموع الحنين والشوق.

- أتعني محمد بن عبد الله، رسول الله ﷺ؟؟

- إنه هو، حينما كان طفلاً، وهذه مفاجأتي لك!

- أتعني أننا الآن في مضارب بني سعد؟

- تماماً.. لقد أتيت بك إلى هنا لِترى بنفسك كيف هيّأ الله تعالى هذا الإنسان للنبوة، وكيف ساق الأقدار لكي تصنع منه رجلاً يحمل خِصالاً وسماتاً فريدة تعينه على حمل الرسالة وقيادة البشرية. سوف أرافقك يا صديقي في محطات عديدة سترى فيها طفولته وشبابه وكهولته، لتتعرف على حياته وتُدرك صفاته والقيم العليا التي تميز واشتهر بها.

- كلي شوق ورغبة.

- لقد قرر عمه أبو طالب وأمه آمنة أن ينتقل إلى مرابع بني سعد، حيث تُرضعه حليمة السعدية، وينشأ في البادية بعيداً عن صخب مكة. برأيك ما الحكمة وأنت ترى هذا المشهد؟

- صبي في الرابعة من عمره، يفقد أباه وهو في بطن أمه، ومقدر له أن يفقد أمه وهو في السابعة، وهو الآن في هذا المكان المقفر بعيداً عن بيته ووطنه وحضن أمه. ربما هي تربية وإعداد للنضوج وتحمل المسؤولية.

أخذ سيدي بلال بيدي وبدأنا نمشي في حلقة دائرية حول الطفل ومن حوله الراعي وقطيع الغنم. ثم تابع سيدي حديثه العذب الجميل:

استمع إليّ جيداً يا صديقي. يعتقد الكثير من الناس أن أساس نجاح أولادهم وسعادتهم هو بامتلاك أسباب القوة والنفوذ. ويسعى الأهل دوماً إلى توفير كلِّ سبل الراحة لأولادهم خوفاً عليهم من الحرمان وما قد يخلفه من آثار سلبية على مشاعرهم وتفكيرهم. لكن هذه كلها قناعات خاطئة. فالأقدار التي صنعت شخصية سيدنا محمد ﷺ العظيمة، لم تأت مصادفةً ولا عبثاً. لقد كان كل

الألم الذي يسكن تفاصيلها مقدَّراً ولحكمة. وها أنا ذا هنا اليوم لأوجز لك أبرز معالم تلك الأقدار..

- **الحرمان: اليتم والفقر والغربة**

فما من عظيم يا صديقي إلا وقد ذاق مرارة الفقر أو تجرع قسوة اليتم أو نال حظه الوافر من المرض أو الظلم. فإذا صادفت تلك الأقدار حساً مرهفاً ونفساً مشرقة، سمت الروح ونضج العقل وتربت النفس على خوض الصعاب وتحمل المسؤولية. فمن عاش مع النبي الكريم أو راجع سيرته العطرة عليه الصلاة والسلام سيجد رجلاً قوياً، حكيماً، رؤوفاً، صبوراً، معطاءً، حليماً، صادقاً، أميناً، ما هان قط، لم ييأس أبداً، ولم تنلِ المصاعب من همته، ولاحطَّتِ المشاقّ من عزيمته، بقي قوياً مسيطراً، محبوباً، معلماً، مربياً، حاضر البديهة، مرهوب الجانب، يحبُّه أتباعه، ويحسب له خصومه ألف حساب حتى آخر لحظه في حياته عليه أفضل الصلاة والسلام.

- **أجواء الصحراء البعيدة عن صخب المدينة**

وفيها ما يورث النفس من هدوء في الطبع وبساطة في العيش، واكتساب الفصاحة وحسن البيان. الإنسان دوماً بحاجة إلى اعتزال الحياة المدنية لِبُرهة من الزمن، ومجالسة أهل البادية والريف لما عُرف عنهم من صدق في اللهجة، وعفوية في التعبير، ووضوحٍ في المشاعر، وبحاجة إلى الانغماس في الطبيعة، والتمتع بجمالها وهدوئها، ولا شك أن أهل البادية عُرفوا بقوة الفصاحة والبيان. وعقل الإنسان وهو صغير مهيأ لالتقاط المفردات والبدائع اللغوية، ولا يخفى عليك أهمية الفصاحة والبيان لرجل مقدر له أن يكون قائد البشرية، وخاتم الأنبياء.

- **راعي الغنم**

وهي مهنة امتهنها جميع الأنبياء، لأنها تعلم صاحبها الصمت والتأمل وفنون الخلوة بالذات. فالصمت: هو الإنقطاع عن التواصل مع الآخرين لفترة من الوقت، مما يفسح المجال للحديث مع النفس ومتابعة الأفكار والخواطر والمشاعر. والخلوة: أن تجلس في مكان بعيد عن الناس لساعات طويلة. أما التأمل: فهو

الصمت والخلوة وزد عليها عاملين استرخاءً في الجسد وتركيزاً في الذهن.

- وما هي الفكرة من التأمل؟

- التأمل حالة عالية من حضور القلب والوعي والتركيز، فهو يساعدك على الغوص في أعماق نفسك والتعرف على مشاعرك وأفكارك، مما يعزز من الوعي بالذات وتوسيع الخيال والتمتع بحس إبداعي في التعامل مع المشكلات. التأمل يساعدك لتخرج من المشكلة التي تحاصرك وتشوش تفكيرك فتضعها في يدك وتقلبها من جميع النواحي، فتحسن التعامل معها على أساس قيمك الشخصية وليس تحت وطأة الخوف أو الطمع أو شهوة الإنتقام. كما أن التأمل يساهم في التخلص من نوازع القلق والتوتر. التأمل يحفز العقل الإنساني لطرح كمٍّ هائلٍ من الأسئلة الوجودية وتقليب الإجابات وربط الأمور بطريقة إبداعية وخلاقة. التأمل أسمى حالة من الأداء الإنساني، بل هي أعلى من العلم، فالعلم يقود إلى المعرفة أما التأمل فيقود إلى الحكمة.

لم أتمالك بعد هذا الحديث المشوق من أن أقترب أكثر وأكثر من هذا الطفل، وأتأمل قسمات وجهه وابتسامته الوضيئة..لا أدري ما الذي كان يخطر ببالك يا سيدي يا رسول الله وانت هنا ترعى الغنم مع ذلك الراعي. هل وقفت طويلاً تُمعن النظر إلى الطبيعة من حولك وتُصغي السمع؟ هل خطر ببالك أسئلة حول من كان معك وفارقوك.. لم؟ وأين ذهبوا؟ وما الحياة؟ والموت؟ وماذا نصنع هنا؟ هل وُجدنا على هذه الأرض عبثاً كما يزعمون، أم أن الإنسان وجد لكي يؤدي دوره شأنه شأن تلك الأجرام والنجوم والأرض والجبال؟ وهذه الصحراء الممتدة والسماء الزرقاء والمطر الذي ينهمر من السماء.. ما وراءها؟ لا أدري حقاً ما الذي كان يخطر ببالك من أفكار وخواطر، لكنها حتماً بدأت ثورة حقيقية في عقلك وقلبك ووجدانك.. ثورة حقيقية بلا شك لأعظم إنسان حملته هذه الأرض. لأن أعظم المعارك هي التي يخوضها الإنسان في جولات فكره وعقله. وأكاد أجزم بأن تلك الخواطر والأسئلة عملت كمحركات خرقت جدار الصمت في ذهنه الغضِّ الطريِّ، وبدأت تدور ويرتفع أزيزها بالتدريج حتى إذا بلغ أشده

وشارف على تلقي الرسالة كان جاهزاً ليقف أمام العالم أجمع ويقلب كلَّ الموازين والقواعد بكلِّ عزمٍ وتصميم.

اليتم والحرمان

كان سيدي بلال ينقلني ويرتحل بي من مشهد إلى آخر، متخيراً أكثر بقاع السيرة تأثيراً وأعمقها أثراً.

سرنا طويلاً بعدما خرجنا من مضارب بني سعد، حتى وصلنا الأبواء، وهي منطقة تقع بالقرب من يثرب وهو الإسم القديم للمدينة المنورة.

لعل الأبواء اسم حُفِر في وجدان كلِّ مسلم تجرَّع اليتم وذاق مرارة فقدان أحد أبويه أو كليهما.

فقد شهد هذا المكان حدثاً تنفطر له القلوب... طفلٌ صغير يذهب مع أمه في زيارة لقبر أبيه، فيفقدها هي الأخرى! أجل ذهب معها، وعاد من دونها، وحيداً، متجرِّعاً مرارة اليتم ووحشة الفقد من جديد!

خيّم على الأجواء صمتٌ ثقيلٌ، وتسربل المكان بالأسى والوجوم والحزن. جلسنا أنا وسيدي بلال على صخرة نتأمل حال الطفل المسكين برفقة حاضنته (أم أيمن)، يُطالع قبر أمه بقلب كسير وروح أسيفة.

لكن هذا المشهد تحديداً لم يكن بحاجة إلى الكثير من الشرح والتوضيح. يكفي أن أتأمل عَيْنَي الطفل الصغير، حتى أفهم خلجات قَلبِه وخواطر فِكرِه وهو على هذه الحال.

هكذا ولد نبيي وهكذا استقبلته الدنيا، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. مات أبوه وهو في بطن أمه، وخرج إلى الدنيا موسوماً بلقب سيدفع ثمنه غالياً في كل لحظة من لحظات المستقبل القادم.. هذا هو يتيم بني هاشم!

خرج إلى الدنيا (يتيماً)، فلم تتلقفه يدا أب رؤوم فور خروجه من رحم أمه، ولم تلمع لرؤيته عينا رجل كان يرى فيه امتداداً لإسمه. هكذا خرج إلى الدنيا، وبهذا الجفاف استقبلته الحياة.

كنت أحدِّق في عيني الطفل أمام قبر أمّه متخيلاً ما يدور في خاطره.. هل طلب منها أن تنهض من قبرها كي تعود معه؟ هل توسل إليها ألا تتركه وحيدا؟ هل شرح لها كم كان الحزن والأسى يملآن قلبه حينما كان يشاهد أقرانه برفقة آبائهم، يداعبونهم، يلعبون معهم، يتسامرون معهم، ويرافقونهم في حلهم وترحالهم فيتعلمون منهم فنون الرماية والمبارزة وركوب الخيل؟

هل جلس معها ليلاً وحدثها كيف كان يرى أصدقاءه وأقرانه عمرو وخالد وحمزة يعتلون أكتاف آبائهم في سوق عكاظ، لكي ينعموا بمتابعة سجالات الشعراء ومناظرة الأُدباء، بكل لهفة وشوق، بينما كان هو ينظر بأسى ويتجرع مرارة اليتم والحرمان؟

كان سيدي بلال غارقاً في صمته، ينظر إليّ والدموع تنهمر من عينيه، وكأنه تتبع خواطري وأفكاري. بدأ يداعب الرمل بأصابعه، وكأنه يفكر فيما عساه يقول. ثم قرر كسر حاجز الصمت، فقال: قد يكون ما يدور ببالك صحيحاً. لست أدري.. فالسيرة المطهرة لم تنقل إلينا ما الذي دار بخلد نبينا عليه الصلاة والسلام في هذا الموقف الجلل، لكن الذي نقل إلينا من بعد هذا الحدث يحمل دلالات عظيمة، فأنت تعلم جيداً أن كفالة نبينا انتقلت من جده عبد المطلب بعد وفاته إلى عمه أبي طالب، ولك أن تتخيل كم حالة وفاة قد شهد في بضع سنين قليلة، وكم جرعة من الحرمان والفقد تجرَّع عليه الصلاة والسلام.

قلت: نعم أعلم. وإني لأعجب كيف مرت على حبيبنا كلُّ تلك الأحداث والحرمان ولم تنل من صفاء قلبه ورقة طبعه ورباطة

جأشه؟ الإنسان بطبيعته بحاجة إلى الأمان والحب. وَكَم سمعنا عن أشخاص انحرفوا عن جادة الصواب لحرمانهم من تلك الحاجات الإنسانية.

أمسك سيدي بلال بيدي وشدّ عليها بقوة وقال: ألم تلحظ يا محمد كم مرة جاء الخطاب القرآني للحبيب المصطفى يذكِّرِه برعاية رب العالمين له ومعيته؟ هل تأملت يوماً المعاني الدافئة التي حملتها سورة الضحى؟ اسمع معي تلك الايات الكريمة:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾

(الضحى:1–11)

كل الناس في هذه الحياة يسعون إلى تحقيق السعادة، ولكل منهم مسلكه لتحقيق تلك الغاية، فمنهم من يجدها في العائلة أو الأصدقاء أو المال أو الجاه أو الدين. لقد هيأ الله تعالى تلك

الظروف لسيد الخلق، في سبيل الإرتقاء بالنفس والروح إلى ما هو أسمى من تلك المتع الزائلة.

السياق القرآني في سورة الضحى يكشف عن الفلسفة الإسلامية تجاه موضوع السعادة، ويعلمنا أن الغاية ليست السعادة، بل الرضا. السعادة هي حالة نشوة تتحقق بفعل أو شهوة مؤقتة وسرعان ما تزول. والسعي وراء السعادة لا يؤدي إلا إلى الحرمان من السعادة. ولعلك تلاحظ أن الأشياء نفسَها التي تمنحنا السعادة هي في الحقيقة تسبب لنا التعاسة. أما الرضا فهو حالة مستمرة من السكينة والسلام الداخلي والطمأنينة. لقد أشارت سورة الضحى إلى السر للوصول إلى هذه المنزلة الرفيعة والتي حرم منها الكثير ممن جمعوا من أسباب القوة والمال والنفوذ، ولكنهم يشكون من التوتر والقلق والضياع. لقد فقدوا الشعور بالرضا. الرضا يعني الشعور العارم بالإمتنان على ما تملك، بدلاً من التحسر على ما لا تملك. يعني أن تتعلق حياتك بالقيم النبيلة بدلاً من التعلق بالأشياء والمتع الزائفة والأشخاص.

الرضا يعني أن يتملكك شعور عظيم بالراحة عندما تُحسن إلى الآخرين أضعاف ما تشعر عندما تأخذ منهم.

- بلى، ولعلك تقصد أن هذه المحن زَرَعت في هذا الغلام قيماً عظيمة هيأته لحمل الرسالة. وكأن المِحن والخطوب التي تحلّ بنا ماهي إلا إشارات أرسلها رب العالمين لكي تتبهنا بأن لا قيمة للحياة حقاً إن لم يكن لها معنى، ولا معنى للحياة دون قيم.

- صحيح يا صديقي، لقد قدمت لنا سورة الضحى السبيل لتحقيق الشعور بالرضا. وهي العطاء والإمتنان.

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

وقد عَلّم الحرمان نبينا عليه الصلاة والسلام أهمية تلك القيم، قيم الإمتنان والعطاء ونُقِشَت معه منذ الصغر، فكان هذا طبعه وسمته وشيمه. فهو لا يتوانى في العطاء من وقته وماله وعلمه وكل ما يملك. وهو دائم الإمتنان. الإمتنان لربه، ولأهله وأصدقائه وأتباعه. الإمتنان هو شعور داخلي بالتقدير والشكر لما وهبنا الله

تعالى من نعم لا تحصى، من الصحة والمأوى والرزق وغيره. حتى إن لسانك يلهج بالشكر لكسرة الخبز ولطعم الماء البارد ونسيم الليل ونور الشمس. الإمتنان هو التعبير بالقلب واللسان والجوارح لمن حولك من الناس، فتشكر أمك التي تعد لك الطعام، وصديقك الذي تستمتع بالجلوس معه، بل وتشكر وتعبرعن امتنانك للموظف الذي يقدم لك خدمة أو خادمك وحارس بيتك على حسن عملهم وأدائهم.

- لقد شهدنا في زمننا هذا تقدماً هائلاُ في العلم والمعرفة في الطب والهندسة والتواصل الإجتماعي، مما حقق نقلة نوعية في أسباب الرفاهية وسهَّل حياة الناس. إلا أنه وبالرغم من هذه الرفاهية ، فما زالت الأرقام تشير إلى ارتفاع معدلات الإكتئاب والأمراض النفسية والإنتحار، وحالات الطلاق والتفكك العائلي. مشكلة الإنسان أنه يسعى لتحقيق السعادة من خلال المزيد من الثراء والمناصب والمظاهر الإجتماعية، ويغرق في إرضاء شهواته وغرائزه، ظناً منه أن المزيد من هذه الممارسات كفيل بجلب السعادة بكل صنوفها.

- إن حالة التوازن بين المادية والروحانية بشكلها المتكامل لم نشهدها إلا في الحضارة الإسلامية، ولم تضع قواعدها إلا الفلسفة الإسلامية، فكما تعلم لقد حارب الإسلام الرهبانية والتفرغ للعبادة كما حارب المادية والإنسياق وراء الشهوات. فدعا إلى الإرتقاء بالنفس والروح وممارسة العبادة والتحلي بالضمير الصادق. إلا أنه حضَّ أيضاً على طلب العلم وعمارة الأرض والإنتاج.

بقيت عيناي تراقبان هذا الطفل الصغير وهو ينظر بحزن وأسى إلى قبر أمه التي واراها التراب. لم يخطر ببال أحد أن هذا الطفل المكلوم سوف يكبر ويبلغ أشدَّه، وسوف يعلّم العالم بأسره معاني الرحمة والإنسانية والعدالة. هذا الطفل سوف يمسح على قلب اليتيم، ويرحم الأرملة وينصف الضعيف. سوف يتلو عليهم قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ
وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾

(النحل: 90)

معالم العظمة تتشكل

من بعيد، ومن خلف إحدى الكُثبان الرملية الضخمة، ينشق الأفق عن سِرب من النقاط السوداء المتحركة، والتي بدت مثل دبيب النمل القادم من بعيد بحثاً عن المأوى والطعام. ورويداً رويداً يقترب ذلك السرب باتجاهنا، وإذا به جمع بشري عظيم، يشق صمت البيداء وهيبتَها ويفرض هيبته على الوجود، كجيش عظيم ينوي فرض هيمنته على الصحراء كلّها.

ومع اقتراب السرب منا أكثر، بدت معالمه تغدو أجلى وأوضح.. إنها مجموعة كبيرة من الرجال. فيهم الراكب ومنهم الراجل، فرسان يمتطون صهوات الجياد، ورجال يمسكون بخطام بعيرهم يجرونها، وعليها مختلف أنواع البضائع والأمتعة. كان من الواضح أنها قافلة تجارية قدمت من بعيد.

وقفت مندهشاً متأملاً المشهد، والفضول يدفعني للتعرف على معالم تلك القافلة ووجهَتُها ورُوادها. كنت أُقلب ناظري في هذا الجَمع الغفير، حتى توقفت عيناي عند لقطة، ارتجَّ لها كياني.

إنه هو.. أجل هو.. شاب في العقد الثاني من العمر يتوسط الجموع، بهيٌّ الطلة، مهيب الهيئة، عريض المنكبين، يتقدم بخطوات وئيدة للأمام، مشرق الوجه باسم الثغر. هذه المرة، لم أواجه صعوبة في التعرف إليه، إنه هو، محمد بن عبد الله رسولي ونبيي عليه الصلاة والسلام. شعرت بنبضات قلبي تتسارع، وأخذ لساني يلهج بشوق ومحبة وهيام: اللهم صلِّ وسلم عليك يا سيدي. أشهد أنك يا حبيبي ويا معلمي ويا قدوتي ويا قُرة عَيْنَي قد بَلّغت الرسالة وأدّيت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت في الله حقَّ جهاده حتى آخر نبضة سَرَت في عروقك.

اقترب مني سيدي بلال باسماً وقال: في هذه الحقبة الزمنية كان رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام قد صار شاباً مترعاً بالطاقة والحيوية، يفيض عطاءً ويقطر خلقاً. لقد عُرف في هذه الفترة بالصادق الأمين، ونال إعجاب القاصي والداني، وصارت سيرته العطرة على كلّ لسان، فغدا مثلاً يضرب حينما تذكر الأخلاق الرفيعة، الإستقامة والنضج والتميز. كان حريصاً على الإتقان

والتميز في كل مهمة توكل إليه، وهو الآن يقود قافلة تجارية أوكلتها له زوجته السيدة خديجة بنت خويلد.

لَزِمْتُ الصمت وأنا أطالع سيد البشرية بشوق ولهفة. فاستدار سيدي بلال نحوي باسماً، ثم قال لي: لعلك تتساءل الآن عن السبب الذي جعلني آتي بك إلى هنا هذه المرة؟

- أجل!

- سأُجيبك يا صديقي. لكن دعني بداية أسألك سؤالاً.. في زمنكم هذا، حينما تقومون بتعيين أحدهم في وظيفة قيادية رفيعة المستوى، ماذا تفعلون لتأهيله؟

- نقوم بتدريبه لمدة كافية، تتناسب مع حجم مهامه وطبيعتها.

- وإن كانت المهمة جسيمة وما يترتب عليها عظيم؟

- نضع شروطاً صعبة لاختيار الشخص وانتقائه من بين كل المتقدمين، ومن ثم نُخضعه لبرنامج تدريبي مكثف، يزوده بالمهارات والمعلومات التي ستساعده ليقوم بأعباء المهمة الموكلة إليه.

- حسناً، هل تظن أن ما ينطبق على المشاريع الدنيوية الصغيرة قد ينطبق على المشاريع الربانية التي شملت البشرية جمعاء؟

- على ما أعتقد نعم.. لكن أظن أن المعايير وطرق التأهيل في هذه الحالة ضخمة وهائلة تتناسب مع تلك المهمة العظيمة.

- أحسنت.. نحن نتحدث هنا عن برنامج عملي مكثف خضع له سيد المرسلين، منذ نعومة أظفاره وحتى آخر يوم في حياته. وإذا تتبعنا سلسلة المواقف والأحداث التي مرَّ بها، بدا لنا المشهد واضحاً جلياً وفهمنا الحكمة من تلك المنعطفات والظروف التي تعرض لها. فلكل منها غرض وغاية، ولسوف تتضافر تلك الأحداث معاً في سبيل تشكيل أعظم شخصية شهدتها البشرية جمعاء.

- شيء عجيب! لم يخطر ببالي هذا الكلام من قبل.

- أتدري يا صديقي. إن أردنا أن ندرس حياة أي من العظماء والمجددين والقادة، ربما يجدر بنا أن ندرس قصة حياتهم ونتعرف على معالم شخصيتهم والأحداث التي مرت بهم حتى وصلوا إلى

هذه المرتبة من المجد والفلاح. علينا أن ندرس طبيعة شخصياتهم ونزعاتهم ومكامن عبقريتهم، ونتعرف على العوامل التي ساهمت في صقل شخصيتهم، ونغوص في أعماقهم ونفهم القيم التي وقفت وراء أعمالهم وإنجازاتهم. أليس كذلك يا صديقي؟

- بلى.. أظن أنه من الأجدر بنا فعل ذلك، لأن الإنجازات والنجاح كالجبل، لا يظهر على سطح الأرض إلا جزء يسير منه، بينما يغوص الجزء الأكبر من جسمه تحت الأرض، وهنا يكمن سر العظمة والعبقرية وحسن الأداء.

- بالضبط يا صديقي.. محمد، استناداً إلى ما قد اتفقنا عليه سالفاً بأن كل حدث مر بالنبي ﷺ، كان جزءاً من مخطط تأهيله لقيادة البشرية وتخليصها من ظُلمها وظلامها، ما القيمة المستفادة من عمله بالتجارة؟

- أظن أن العمل بالتجارة يكشف المعدن الحقيقي للإنسان، فالمال فتنة لا يصمد أمامها إلا من كان يتمتع بقدرعال من الأمانة والنزاهة والمراقبة الذاتية.

- تماماً.. وماذا أيضاً؟

- تحتاج إلى مهارات عالية في التواصل مع الناس بمختلف منابتهم وشتى طباعهم، والقدرة على امتلاك مفاتيح التعامل معهم واحتواء إختلافهم واستيعاب إحتياجاتهم وتضادِّ أذواقهم.

- أحسنت.. وماذا بشأن لغة التواصل معهم؟

- كلما كان التاجر فصيحاً، مفوهاً، كان أقدر على إقناع الناس ببضاعته، وأكفأ في الترويج لها.

- بالضبط.. وهل تعتقد يا محمد أن هيئة التاجر وهندامه قد يؤثران على حضوره لدى الزبائن؟

- من منا يا سيدي لا يأسره الجمال والأناقة ولا تأخذ الطلعة البهية بلبّه؟

- تماماً. كلنا نعلم يا صديقي أن ماضي النبي ﷺ قد سانده جداً عندما جهر بالرسالة. أذكر تماماً ذلك اليوم، حينما وقف خطيباً في قريش وسألهم إن كانوا سيصدقونه إن قال لهم: إن جيشاً يستعد لغزوهم يقف خلفه، كانت إجابتهم البديهية والتلقائية أنهم ما عهدوا عليه إلا الصدق، لقد مهد الماضي الناصع للنبي الكريم الطريق له، وكان سبباً في إسلام البعض، فضلاً عن كونه

كان سبباً جدياً في تمحيص الدعوة الجديدة وأخذها على مأخذ الجد لدى الكثيرين أيضاً.

- عجباً لقريش، ما عرفوا عنه إلا الصدق والأمانة ومع هذا حاربوه وكذبوه وألحقوا به كلَّ صنوف الأذى!

- إني حقاً لأتعجب فقريش كانت تعلم يقيناً أن رجلاً بنزاهة النبي ﷺ وأمانته من المحال أن يكذب أو أن يدعي ما ليس له. أتدري يا محمد، إن للصدق مراتب، أعلاها أن تصدق الناس بمشاعرك وأحاسيسك، وأن يكون ظاهرك خيراً من باطنك. وأن تلزم الصدق مهما كلفك من خسائر وتبعات. تلك الدرجة الرفيعة التي تبوأها هذا الرجل الذي تراه ماثلاً أمامك أكسبتهُ رصيداً هائلاً من المصداقية والثقة لدى جمهور قريش.

- إذن نحن نتحدث عن منظومة قيم قوامها اللّقب الذي اشتهر به (الصادق الأمين).

- صحيح.. أضف إلى ذلك قيماً حميدةً عُرفت عنه مثل السماحة والكرم والمروءة وإغاثة الملهوف. عدا عن توقه للعمل التطوعي والجهد الجماعي الإنساني. وما كان انضمامه لحلف

الفضول، والذي كان هدفه نصرة المظلومين إلا خير شاهد على ذلك. والأغرب من ذلك أن قريشاً لم تسجل على هذا الرجل أي ماضٍ منقوص أو مثلبة أو عيب، وهو ما جعلهم يقفون عاجزين عن تشويه سمعته أو سيرته أمام الناس.

أيها السادة.. اليوم تشهدون السيرة الذاتية تكاد تكتمل لدى رجل يتهيأ لقيادة البشرية جمعاء، وترون معالم شخصيته تتظافر مثل حبات اللؤلؤ حينما تجتمع فتكوّن العقد النفيس. نحن نتحدث عن قيم عليا تتشكل من صدق وأمانة ونخوة ومروءة، وثقافة التعايش والحوار. عن عوامل القوة من حسن النسب والفصاحة والبيان. عن تميّز في الأداء الشخصي والمهني والعائلي. عن رفاق دربه من زوجة وأصدقاء وخلاّن، والذين حملوا القيم نفسَها التي تحلى بها فكانوا نِعم السند ونِعم الرفيق. عن إنسان ترفَّع عن كلِّ رذيلة أو عيب أو منقصة. عن نفس سوية وسريرة زكية. أليس هو من خاطبه ربُّ العالمين وقال:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ﴾ (الشرح:1-2)

خيّم الصمت والهدوء من جديد. وعدنا نمتّع عيوننا وقلوبنا بهذه الطلة البهيّة. كان هذا الشاب يتنقل بين التجار ويتسامر معهم وقد ملأ الأجواء أُنساً بروحه الحلوة وحديثه العذب. هذه "كاريزما" لا يمكن لأحد أن يغفل عنها عندما يراقب هذا الشاب بكلِّ ما وهبه الله تعالى من شخصية آسرة بكل تفاصيلها. أنظر إلى حسن محيّاه وأناقته. تأمَّل في طريقة مشيته وحديثه وحركات جسمه، وراقب هيبة حضوره إذا سكت وحلاوةَ بيانه إذا تحدث. أنظر إلى من حوله من الناس وهم ينظرون إليه بعيون ملؤها المحبة والتقدير والإعجاب.

هيا يا رسول الله. فقد بدأ العد التنازلي وحبس الزمان أنفاسه وتهيأ الكون لذلك اليوم العظيم. اليوم الذي تقف فيه أمام العالم أجمع ويشرق في الأرض نور فجر جديد.

لحظة تغيير

الطريق إلى غار حراء وَعرٌ وشاق. تسلك طرقاً صَعبة وسط الصخور السوداء الضخمة. كل شيء هنا يوحي بطبيعة قاسية الملامح، مُوحشة حالكة الظلام مثل وحشة القبور. السماء مرصعة بالنجوم وقد أحاطت بالهلال الذي وقف مزهواً بإشراقته وتألقه وقد أرسل خيوطه الفضية على سفوح الجبال، كان سيدي بلال يمسك بيدي ويساعدني على تسلق المرتفعات باتجاه قمة جبل النور.

سحبني بلال من يدي لنعتلي إحدى الصخور، وعندما إعتَدلت في وقفتي، نظر إليّ وقد أخذ مني الإجهاد والتعب كلَّ مأخذ، وقال: الآن يا صديقي.. سوف تشهد أعظم وأهم لحظة في حياة هذا الإنسان، لا بل في حياة البشرية جمعاء. كان ينظر إلى مغارة صغيرة تحت تلك الصخرة على بعد بضعة أقدام منا. أخذ مني الشوق واللّهفة كل قلبي وفكري وجوارحي، ورُحت أتبع سيدي بلال بسرعة حتى أدركته عند باب المغارة. يا إلهي! ما هذا الذي أراه! وفي أي عالم أنا؟ وأنىّ لعقلي أن يستوعب هذا المشهد أو

لقلبي أن يتحمل جلال الموقف وهيبته. خيّم الهدوء والخشوع على المكان، وبدا لي هذا الجبل وكأنه ماردٌ ضخمٌ وقد انحنى خشوعاً وإجلالاً للضيف الذي حلّ بمغارته وشرّف هذا المكان، فملأ فضاءه نوراً وبهاءً.

أجل.. إنه هو.. إنه الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام وقد اتّخذ مكانه داخل هذا الغار، وعلى قسمات وجهه تقرأ حالة عجيبة من السكينة والوقار والتجليّ، وقد تعلق نظره في السماء، يتأمل نجومها وأفلاكها وأجرامها. وكأنه يخاطبها وتخاطبه في حديث عذب ومناجاة رقيقة بددت قسوة الطبيعة وأشرق نورها وسط ظلام الليل الدامس.

مرّ وقت طويل، وأنا أراقب هذا المشهد المهيب، وأنظر إلى سيدي بلال، وقد انعقد لساني وفقدت القدرة على التعبير والكلام. العشرات والمئات من الأسئلة تجول في خاطري وتحيّر وجداني.

وبدا لي أن سيدي بلال أدرك ما الذي يجول في خاطري، فتقدم بهدوء باتجاهي وأخذ بيدي بصمت، ثم اتجه بي إلى الطرف الآخر من الغار وقال لي: انظر.. ماذا تشاهد؟

لن تتخيل أبداً سحر ذلك المشهد.. فتحة صغيرة وسط صخور الغار تستطيع من خلالها أن ترى هذا الإنسان العظيم وهو جالس في داخله، وعندما تنظر إلى الإتجاه الآخر فسوف ترى من بعيد مشهد مكة المكرمة تتوسطها الكعبة المشرفة! نظرت بدهشة إلى سيدي بلال، وهنا بادرني بلال وسألني: ماذا ترى يا صديقي؟ فقلت: كان سيدي رسول الله ينظر إلى الكعبة من موقعه هذا! ابتسم بلال وقال: بالضبط يا صديقي. هذا المشهد الماثل أمامك يحمل الكثير من الدلالات والإشارات المهمة، هذا رجل يترك بيته وعائلته ليعتلي قمة هذا الجبل، ويقضي الليالي الطوال منفرداً وحيداً، إلا أن عينه ما زالت متجهة إلى وطنه وحارته وإلى البيت العتيق. إنها تحكي حكاية الصعود من غير تعالٍ، والسمو من غير كبر، والوحدة من غير عزلة. إنها تتحدث عن رجل يتهيأ لتغيير نفسه وتغيير العالم، فكان لا بدَّ من اتباع خطوات عملية، ضمن معايير دقيقة واضحة المعالم محكمة التفاصيل. الصعود إلى القمة وسط أجواء موحشة وطبيعة قاسية جرداء. الخلوة بالنفس والتأمل والتفكر. عين تطل على العالم

الحقيقي وتبصر الوطن والمجتمع والعالم، بعين البصيرة والوعي والفكر.

لم أستطع أن أرفع نظري عن سيدي رسول الله، وأنا أنصت لكلمات بلال، وبدأت أتمتم بهدوء. والآن نحن بانتظار تلك اللحظة العظيمة. إقترب مني بلال، وهمس في أذني: ليس بمقدورك يا صديقي أن تشاهد تلك اللحظة. فوالله إن فيها من الهيبة والجلال ما لا يحتمله قلبك. ولكن اسمعني جيداً يا صاحبي، لقد هيأت لك الظروف وتعرفت على الكثير من الأحداث الكبيرة والتي غيرت مجرى التاريخ، وعلى العديد من الشخصيات العظيمة التي صنعت التاريخ والمجد والحضارة. ولعلك تدرك الآن أننا نقف أمام أهم لحظة في تاريخ البشرية، تلك هي اللحظة التي شهدت ولادة هذا القائد العظيم. قائد وأي قائد. إنه أعظم نبي وقائد ومعلم ومربٍّ يشهده التاريخ وتتعرف عليه البشرية جمعاء! هذا الموقف وتلك اللّحظة التاريخية تستحق منا جلسة تأمل ووعي وفكر. لعلنا نخرج منها بدروس وعبر تضيء لنا الطريق، وترشدنا إلى تحقيق طموحاتنا وأحلامنا.

فهتفت بحماس وقلت: لحظة تغيير. جميع الأشخاص المميزين من القادة والعلماء والرواد توفرت لديهم عوامل العظمة، إلا أنهم عاشوا حياةً عادية مثل سائر البشر إلى أن جاءت تلك اللحظة التي هزَّتهم من الأعماق، وثارت في صدورهم عاصفة عارمة واستيقظ البركان الخامد. عادة ما تأتي لحظة التغيير عندما تواجه موقفاً صعباً فيه تحدٍّ، وغالباً ما يكون هذا الموقف صعباً ترافقه مشاعر خوفٍ أوغضبٍ أو حزنٍ شديد ووحدة. ردة فعل هذا الإنسان المميز إزاء تلك المواقف تختلف عن ردود فعل غيره من سائر البشر، إذ لا تتملكه مشاعر اليأس أو التردد أو الهوان. بل تجعله ينظر للأمور بشكل مختلف ويكشف الغاية التي خُلق من أجلها، ومن تلك الساعة يقرِّر أن يكرِّس حياته نحو معنى عظيم، وغاية سامية تمتلك قلبه وعقله وجوارحه.

بدأ بلال يجول بنظره في معالم هذه المشهد العجيب، ثم قال: صحيح يا صديقي. إن الملابسات والظروف التي صحبت هبوط الوحي لم تكن مصادفةً ولا عبثاً أبداً، فقد اجتمع في تلك اللحظة

خلطة عجيبة من شأنها أن توفر البيئة المناسبة والمناخ الملائم لإحداث تلك اللحظة المدوية.

ولنعشْ معاً تلك العوامل الثمانية التي شهدت مولد قائد الأنبياء وسيد المرسلين وقائد البشرية.

1- أنها جاءت في لحظة خلوة وصمت وتأمل: والحقيقه أنه كثيراً ما راودني هذا السؤال.. لماذا تأخرت الرسالة على سيد الخلق حتى سن الأربعين؟

واذا كان مقدراً لهذا الرجل أن يحمل أعظم رسالة في التاريخ ويخرج الى الناس كخاتم الأنبياء وسيد المرسلين فلم الإنتظار حتى سن الأربعين؟ الجواب بكل بساطة أن الأعباء والمشاق والمحن التي سيتعرض لها هذا القائد كبيرة وصعبة وتستلزم طرازاً خاصاً من الرجال. فإذا كان الحبيب عليه الصلاة والسلام قد تهيأ بمجموعة من المواصفات والخصال الفريدة مثل حسن الخلق والذكاء والفطنة والفصاحة والبيان، فقد كان ما يزال بحاجة الى أن يرتقي بذكائه الروحاني إلى أعلى درجاته، وهذه لا تكون إلا في عادة التأمل. إن التأمل ليس مقصوراً على سيد الخلق، بل

هو عادة انتهجها جميع الأنبياء والعلماء والعظماء والمفكرين. العظماء بكافة أصنافهم وتنوع مشاربهم مارسوا الخلوة والصمت والتأمل، بل وأزعم بأن لحظة التغيير جاءت غالباً في تلك اللحظات من التجلي الروحاني والصفاء الذهني مما يوفر الفرصة المناسبة لتلقي الفكرة وتلقي الخواطر وإحداث التغيير.

التأمل يعلمك كيف تخرج من المشكلة وتشاهدها من الخارج وتقلبها من جميع الزوايا. التأمل يعلمك كيف تسيطر على مشاعرك وانفعالاتك. التأمل يمنحك التفكير الإبداعي وسَعة الخيال وحس التركيز وصفاء الذهن.

2- **أنها جاءت في الليل:** للّيل أسرارٌ لا يخبرها إلا من شهدها من العلماء والأدباء. سحر الليل وهدوؤه بخلاف صخب النهار له دور خاص في توفير المناخ المناسب لولادة تلك اللّحظة.

ويخبرنا علماء الطب وعلم النفس عن أهمية السهر ليلاً والخلوة بالنفس وإعمال الفكر في تلك اللحظات، حيث الجسم في حال استرخاء وانقطاع عن روتين الحياة اليومية، مما يعطي الروح والفكر حالة تركيز غير عادية، ويسمح بتوارد الخواطر وتتبع

الأفكار وتحليل مجريات الأمور، خصوصاً اذا تزامن ذلك مع العامل الأول: الخلوة والصمت والتأمل والإنقطاع عن الناس.

3- شهر رمضان: والذي سُمي بعد ذلك بشهر الصيام. يخطئ كثيرٌ من الناس عندما يعتقدون أن شهر رمضان شهر الخمول وبلادة الفكر! وربما وصل الأمر بالبعض إلى اختلال توازنهم فيغلب على الواحد منهم مشاعر الغضب والعدوانية وضيق الصدر.

ويحدثنا الطب والسلوك البشري عن طبيعة تغير الهرمونات والعوامل النفسية أثناء الصيام، لذلك شهر رمضان فوق أنه عبادة خالصة لوجه الله تعالى فهو فرصة جميلة للإسترخاء الجسمي وتركيز الذهن من أجل التأمل ومراجعة النفس والتخطيط للمستقبل.

4- حالة الخوف: سؤال كثيراً ما راود ذهني.. لماذا بدأت الرسالة بهذا الشكل؟ لماذا لابس هبوط الوحي تلك المُلابسات المخيفة التي تخطف القلب هلعاً وتُشتت الذهن وتفقد التركيز؟ ليس من السهل أبداً أن تكون في هذا المكان الموحش وفي ظلمة

الليل البهيم، وتتفاجأ بمخلوق ضخم يقتحم عليك خلوتك. لا تعرف هل هو إنسان أو جني أو مخلوق غريب، ويملي عليك طلبات غريبة: "إقرأ". يطلب منك أن تفعل شيئاً لا تجيده. أنت أصلاً لا تجيد القراءة ولا الكتابة. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد وحسب، بل ويضمك إلى صدره تلك الضمة القوية، وتوشك أن تخنق أنفاسك وتلفظ روحك على إثرها، ويعيد تلك الضمة مراراً وتكراراً إلى أن ينطق بتلك الكلمات الخالدة:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

(العلق:1- 5)

هذا بالضبط ما يحدث معك في لحظات مدوية من حياتك.. ربما عندما يتخلى عنك أقرب الناس إليك أو تفقد حبيباً أو تُبتلى بمرض أو فقر أو كارثة. الخوف والحزن والغضب مشاعر إنسانية طبيعية ولا تعني بالضرورة الهبوط الى القاع، فلعل رب العالمين أرسل تلك الأحداث إليك حتى يهزّك من الأعماق وتستيقظ من سباتك وتتلمس سُبل الخلاص، وتتعرف على مكامن

قوتك وترتقي بروحك وفكرك، وعندها فقط تتذكر تلك اللّحظة وتقول: هذه أروع وأجمل لحظة مرت عليَّ في حياتي ومن هنا يبدأ التغيير!

الشعور بالخوف أو الوحدة أو الحزن العميق هي حالة فريدة من نوعها. مشكلة الناس أنهم يطرحون على دماغهم الأسئلة الخطأ، وبالتالي يحصلون على إجابات خاطئة. معظم الناس يلقون باللّوم على الآخرين ويندبون حظهم ويكثرون من التذمر.

أما إذا كنت من أصحاب الحسِّ المرهف والنفوس المشرقة فسوف تصحو بعد تلك الصدمة وتتساءل: ماذا حدث؟ ولماذا؟ ومن أنا؟ الإنسان الذي يتمتع بذكاء روحاني عالٍ له شأن مختلف عن الآخرين. فهو يفلتر مخه، ولا يسأل نفسه أسئلة سلبية مثل تلك الأسئلة، بل يسأل أسئلة واضحة ومحددة. كيف يتعامل مع هذا الموقف وكيف يستطيع أن يخرج منه بشكل أفضل مما كان عليه سابقاً، ويبدأ يسأل نفسه: ماذا علي أن أفعل؟ وما هي مكامن قوتي؟ وماذا عليّ أن أقدم لهذا العالم؟ العنصر الأساسي هنا هو أن تشهد تغييراً هائلاً في طريقة

تفكيرك في سبيل التخلص من تلك الأزمة التي تواجهها. لا يمكن أبداً أن تتحكم بمشاعر الغضب أو الإحباط أو الحزن، بل يمكنك أن تغير طريقة تفكيرك، فإذا فكرت بشكل مختلف، تبددت تلك المشاعر وحلَّ مكانها مشاعر السكينة والطمأنينة والحماس.

5- إقرأ: ليس غريباً ان يستهل القرآن بكلمة إقرأ. الفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات هي أن الحيوانات بطبيعتها تتحكم بها مشاعر وغرائز الخوف والغضب تجاه كلِّ ما تواجه من أحداث. الإنسان وحده قادر أن يستثمر عقله ومعرفته فيتحكم العقل بالمشاعر وليس العكس.

المعرفة جاءت قبل العبادة وقبل الخلق وقبل القيم. إنها دعوة صريحة إلى استثمار العقل والفكر والمعرفة. لأن المعرفة هي التي ميزت آدم عليه السلام عن الملائكة وسائر المخلوقات، حتى اختاره الله عز وجل لخلافة الأرض. حتماً ستقودك المعرفة إلى العبادة والخلق والقيم، لقد تميز هذا الدين باحترام العقل والمنطق والعلم، ودعا إلى السير في الأرض والتفكر والإستنتاج، بل وجعل العلم فريضةً وحارب الجهل والخرافات، وسوف تشهد

الحضارة الإسلامية نهضةً شاملة تحقق الإنسجام بين الدين والأخلاق وبين العلم والأخذ بأسباب القوة والتمكين.

إن الضمير والمبدأ دون المعرفة يقود إلى الضياع والهلاك، كيف لا وقد شهدنا العديد من الأفكار والجماعات التكفيرية والإرهابية التي قادت العالم إلى الخراب باسم الدين وباسم المبادئ والقيم.

ستتعرض أنت إلى أحداث جسام وتضعك أمام قرارات مصيرية، وتتملكك مشاعر الخوف والغضب والحزن. استثمر عقلك أولاً. عالم المعرفة اليوم مفتوح أمام الجميع بكل سبله وأدواته، وليس من الصواب أن تترك نفسك نهب الوساوس والحيرة وتسمع لكلمات السلبيين والجاهلين والمحرضين. بل اسأل أصحاب العلم والحكمة وسوف تجد الجواب الشافي والبرهان الساطع الذي يشرح صدرك ويشفي فؤادك بإذن الله.

6- **المعلم الحكيم:** الحبيب المصطفى ﷺ أخذ تلك الوصية بكل تأكيد، فقد توجه فوراً إلى موضع سره ومحل ثقته وشريكة

حياته، تلك السيدة التي توفرت بها أسباب الحكمة وسلامة الفكر وحضور القلب.

بعدها توجه إلى ورقة بن نوفل لما عُرف عنه من حسن الإطلاع على رسالات الأنبياء ووحي السماء فكان نعم الناصح الأمين والموجه الحكيم، وهو الذي بشره بأنه خاتم الأنبياء.

7- **رفيق الدرب:** إذا احتار الفكر وتشتت الذهن واختلطت الأفكار فأنت حتماً بحاجة إلى إنسان ورفيق درب. الأمر هنا يختلف عن مجرد خبير أو معلم أو صاحب مشورة، أنت بحاجة إلى إنسان يفهمك ويلمس قلبك ومشاعرك، ويمدك بالدعم والإهتمام، ويمنحك الثقة والقوة. فتسمو الروح ويسكن الفؤاد وتطمئن الجوارح. ومن أفضل لهذا الدور من السيدة خديجة؟ فهي زوجته ورفيقة دربه ومحلُّ ثقته وهي صاحبة الحكمة والعقل الراجح.

فكيف شدَّت من أزره وهدأت من روعه؟ خديجة قامت بمهمتها على أكمل وجه، فسمعت وأنصتت له ومنحته الأمان والإهتمام والثقة، ونطقت بتلك الكلمات الخالدة التي تسطَّر بماء الذهب.

السيدة خديجة في خطابها التاريخي القصير لم تبدُ منها بوادر القلق والحيرة، ولم تهوّن من شأن ما حصل أو ما ينتظره من ملمّات وخطوب، ولم تستند إلى الحسب والنسب والقوة والمال في سبيل تذليل الصعاب.

بل تحدثت عن القيم التي شهد له فيها القاصي والداني، فماذا قالت السيدة خديجة؟ اسمع ماذا قالت:

"كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". وهنا يأتي العنصر السابع.

8- القيم الشخصية: إذا كانت رسالتك وأفكارك وخطابك مبنيّة على القيم التي تؤمن بها فلا خوف عليك. قد تتعرض إلى الصد والتكذيب والأذى، ولا يخلو الطريق من أزمات تحير عقلك ووجدانك وتغمرك مشاعر الحزن والألم والوحدة. لا ريب! لكن صاحب القيم لا يحيد عن طريقه ولا يعرف التردد ولا التنازل. صاحب القيم لا تدركه مشاعر الهوان ولا اليأس ابداً، صاحب

القيم قادرٌ أن ينفض مشاعر الحزن والوحدة، وينهض ليواصل طريقه من جديد ويكمل مهمته حتى آخر رمق.

سكت سيدي بلال وهو ينظر بعيون ملؤها المحبة والإعجاب صوب سيد الخلق، ثم نظر اليّ وقال: هيا يا صديقي.. آن الأوان أن نذهب!

بدأنا بالنزول إلى سفح الجبل وقلبي يتوقد حماساً لما رأيت وسمعت!

إن المعاناة بكافة أشكالها جزء أساسي من حياتنا، وفي واقع الحياة نشهد الكثير من قصص العظماء والأبطال الذين شهدت حياتهم لحظة تغيير بما فيها من مشاعر الخوف أو الحزن أو الوحدة، وتمكن أولئك العظماء من تجاوز الشعور بالمعاناة في اللحظة التي اختلوا فيها بأنفسهم وقرروا أن يحدثوا تغييراً حقيقياً في حياتهم، تغييراً يسمو بهم فوق مشاعر الغضب أوحب الإنتقام أو الخوف.

إلا أن أعظم وأروع لحظة تغيير شهدتها البشرية هي تلك اللّحظة والتي على وشك أن تحدث هناك.. في غار حراء، ليلة القدر..

أول إلتقاء بين سيد البشرية وخاتم الأنبياء مع جبريل عليه السلام.

حالة خوف

بأبي أنت وأمي يا رسول الله. بأي قلب وبأي وجدان عدت أدراجك إلى بيتك بعد تلك الليلة وما حملته من أحداث تأخذ بنياط القلب وتخطف الألباب فزعاً وجزعاً؟ وأنّى لك أن تتجاوز هذا الحدث المروع وتعود إلى حياتك من غير خوف وحيرة ووجل؟ سوف تواجه طيلة مسيرتك الطويلة العديد من الأحداث الفاصلة، وتتعرض لألوان المحن من صدود وتهديد وحروب ومعارك. لكن سوف يبقى هذا الحدث بالذات له وقعه الخاص على قلبك يا رسول الله. وربما أجزم أنك لم ولن تتلقى جرعة كبيرة من الخوف مثلما حدث معك في تلك الليلة.

سيدي بلال أخذني اليوم إلى البيت الذي يسكنه سيد المرسلين. كان المشهد صعباً من خلال النافذة، لكنني استطعت أن أمّيز في ظلمة الليل سيدي رسول الله وقد تدثر بفراشه، وعلى وجهه علامات الخوف والهلع. وهاهي السيدة خديجة، مهجة القلب وبلسم الروح جالسة بقربه، وتهدئ من روعه.

يبدو أن حالة الخوف هذه كانت ضرورية وحاسمة في تلك اللحظات.. لحظة نزول الوحي لأول مرة وبدء الرسالة. إلا أن حالة الخوف تبقى صحية إذا أدت غرضها وحركت القلب والجوارح ثم رحلت، أما إذا استمرت فقد تكون عواقبها وخيمة، فقد يشتت الذهن ويشل التفكير وتخسر الجولة.

تعتري الواحد منا لحظات، يشعر فيها أن قلبه يكاد يتفطر خوفاً وجزعاً لهول الموقف، ويسقط فريسة المشاعر وتلاطم الأفكار. ويزيد الطين بلّة الشعور العارم بالوحدة. فلا أحد يفهم مرادك ولا يقدّر مشاعرك. وربما انبرى أحدهم فأنكر ما حلّ بك من خوف وأمعن في اللوم، مطالباً أن تظهر المزيد من العزم والجلد، وكأنك مجرد جماد عديم المشاعر. أو سارع في استصدار الأحكام وإلقاء التعليمات. ما هكذا تكون المواساة ولا الدعم ولا المساعدة، إذن كيف تكون؟

بعد قليل، سوف يعود سيدنا جبريل ويزور سيدنا محمداً في بيته. نعم في بيته. لكن هذه المرة سوف يعود بشكل مختلف. هذه المرة لا مكان للمفاجآت ولا الخوف ولا الجزع. هذه المرة سوف يأتي

ليمسح على قلبه ويشد من أزره ويسكّن فؤاده. هذه المرة سوف يكون نعم الرفيق ونعم الناصح ونعم المعّلم!

لقد نزل عليه ومعه وصفة عجيبة حملها من فوق سابع سماء. وصفة من شأنها أن تنزع من قلبه كل نوازع الخوف والهلع، وتملأ صدره بالعزم والقوة والتفاؤل والأمل!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾
(المدثر: 1– 7)

كان سيدي بلال يحدّق بي بهدوء، وكأنه يتابع ما يجول في خاطري، ثم أخذ نفساً عميقاً وقال:

لاحظ هنا الأسلوب القرآني الرفيع الذي نَزل عليه وأخذ بيده يدعوه إلى تجاوز هذا الموقف والإستعداد لتحمل أعباء ضخمة، إنه يسوق الأوامر والتوجيهات في ست آيات في غاية الروعة والبيان رغم قصرها وسرعة إيقاعها.

إنها تخاطبه بـ (المدثر) وتقرُّ أنه خائف إلى حد أنه تدثَّر. وفي هذا الأسلوب القرآني إشارة بديعة إلى أنه من الطبيعي أن تعتري الإنسان أحياناً مشاعر مثل الخوف أو الحزن أو الضعف، ولاحظ أن الخطاب القرآني لم ينكر على سيدنا رسول الله مشاعر الخوف. ولكنه استكمل خطابه في الخطوات اللاحقة بما يساعده في التعامل مع تلك المشاعرعلى الوجه الأمثل.

(قم فأنذر).. ليس هذا وقت الخوف والهلع، فعليك أن تعلم أن عليك مسؤولية ضخمة ورسالة سامية. تعامل بشجاعة وإيجابية مع هذا الموقف. المعنى هنا واضح.. إن السبيل الفعال للتخلص من الشعور بالقلق والخوف لا يكون من خلال الهروب من المشكلة ولا كبت المشاعر، ولن يكون في البحث عن أسباب السعادة والمتعة. بل البحث عن معنى للحياة. ويتحقق ذلك من خلال تحديد هدف سامٍ تؤمن به، وعقد العزم على خوض التحديات في سبيل تحقيقه. ولذلك جاء الخطاب القرآني بكلمة "قم". كلمة قم تحمل معاني الحركة والعمل الدؤوب والعزم والهمة العالية.

وقد كان من دعاء الرسول ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل). فالعاجز قد توفرت لديه الرغبة وفقد القدرة، والكسول هو من توفرت لديه القدرة وفقد الرغبة. فإذا ما توالى الفشل في أداء مهمتك ولم تحقق غايتك، فانظر من أي الفريقين أنت!

(وربك فكبر). وبما أنك قررت أن تأخذ زمام المبادرة وتغيّر العالم من حولك، فلا بد من التعرض لصنوف عدة من الصدّ والأذى. هذا شأن كلِّ شخص قرر التغيير على أي مستوى كان. إذا كان لديك حلم عظيم وطموح عالٍ ولم تتعرض للمقاومة أو الإتهام بعقلك أو إخلاصك أو أدائك، فاعلم أنك لست على الطريق الصحيح! هذه طبيعة البشر.. يكرهون التغيير ويقاومون أي فكرة جديدة!

ولابدَّ من المعاناة..المعاناة حاصلة لا محالة. إلا أن ما يخفف الشعور بالمعاناة هو يقينك بأن هناك ما يستحق المعاناة من أجله. وربك فكبر.. الله أكبر وأعلى وأجل من العشيرة والمال والأهواء، ويهون في سبيل مرضاته كلَّ أشكال المعاناة. الله

أكبر..لا توكل ولا رجاء إلا من الله.. الله أكبر.. فلا تعلق بالأشخاص ولا الأشياء ولا الشهوات أو الأهواء، فكله زائل.. التعلق بالله وحده ذي الجلال والإكرام.

وحتى يتم التغيير على أحسن وجه، كان لا بدَّ من خطوات عملية لتغيير الذات أولاً، وتكون مستعداً لمواجهة العالم. معظم الناس يعتقدون أن التغيير يبدأ من الداخل. القرآن الكريم هنا خالف تلك القاعدة ودعا إلى التغيير الخارجي أولاً.. (وثيابك فطهر). ثيابك فطهر.. ترمز إلى تغيير كل ما هو ظاهر..إذا واجهت تحدياً خطيراً في حياتك، أنظر إلى نفسك، فربما آن وقت التغيير. إن النفوس والقلوب يعتريها الضعف والعجز والكسل نتيجة الحياة الروتينية والجمود، والإنسان بطبعه يخشى التغيير، ويحلو له أن يبقى في دائرة الأمان التي تعوّد عليها. ولذلك كانت لحظة الخوف فرصة استثنائية يجدر استغلالها. فبدلاً من الإستسلام لنوازع الخوف أوتوجيه اللوم إلى الظروف أو الآخرين، فلنعمل على التغيير ومن الآن. غيّر من طريقة لبسك وهندامك، أو ربما ترتيب مكان جلوسك ونومك. تخلص مما يعطيك طاقة

سلبية أو يحملك عبئاً ليس له داعٍ من أشياء وعادات وأشخاص، واستبدله بما يحمل لك قيمة تؤمن بها وتعمل من أجلها. إذا بدأت يا صديقي بتحقيق التغيير الخارجي أصبح التغيير الداخلي أكثر سهولة ويسراً، (والرجز فاهجر).. في الكثير من الأحيان يفاجئنا ذلك الحدث الجلل ويبدل قناعاتنا، نكتشف أن العديد من القناعات التي كنا نؤمن بها لم تكن صحيحة أساساً. وتأتي منعطفات الحياة الصعبة لتكشف لنا الأمور بشكل مختلف لم نعهده من قبل، وتكشف الحقائق عن أشخاص كانوا محل ثقتنا أو محبتنا، بل ربما وصل بنا الحال أن نكتشف في أنفسنا أموراً لم نكن نعرفها. لقد كنا مخطئين.. وقد زادنا هذا الحدث الجلل إدراكاً ونضجاً وعلّمنا دروساً لا تنسى!

بدأت معالم تلك الآيات الكريمة تتضح أمامي. أمر في غاية الروعة من سرعة الإيقاع وحسن البيان ووضوح اللّفظ وتناسق الخطوات. لم يخطر ببالي يوماً أن تلك الآيات على قصرها تحمل في طياتها معالم طريق وأدوات عملية للتعامل مع حالة الخوف والقلق. منهج متكامل ومتوازن حقاً. ولكن يبقى السؤال..

ماذا لو أخذنا بتلك التعليمات لبرهة من الزمن ثم فترت النفوس؟ ماذا لو عشعش الحزن والغل في القلب وفقدنا القدرة على التسامح؟ أليس هذا حال الإنسان؟ الكثير من رفاقي ومرضاي لا يهنأ لهم عيش، لأنهم ما زالوا يتجرعون مرارة الظلم، وسقطوا فريسة إدانة الذات أو الشعور بالغلّ تجاه من ظلمهم.

استكمل بلال حديثه وكأنه فهم ما يدور ببالي، ومضى يقول: إذا تأملت الآيات السبع جيداً فلسوف تدرك دقة وتماسك تلك الخطوات.

إن الآيات الثلاث الأولى جاءت لتضع القاعدة الأساسية للتعامل مع حالة الخوف كما أسلفنا سابقاً..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ ﴾ تعرف على مشاعرك ولا تحاول كبتها أو التهرب منها. قم وتحرك لتحقيق غاية سامية تؤمن بها وتسعى لتحقيقها. حقق أهدافك في سبيل رضا الله تعالى، فله المقصد ومنه الرهبة والرجاء وإليه التفويض. تلك هي عناصر القاعدة الرئيسية: المشاعر، السلوك، النية. ثم تأتي الآيتان اللتان تحضّان على التغيير.

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾

تغيير الظاهر من أشياء وعادات وأشخاص، وتغييرالباطن والذي يحصل من خلال تغيير القناعات واستخلاص الدروس. والآن انتبه جيداً يا صديقي لما سوف أقول: إن الحق سبحانه وتعالى وهو اللطيف الخبير يعلم جيداً ما الذي تتحدث عنه. لقد جاءت الآية السادسة والسابعة كصمام أمان في سبيل الحفاظ على آلية التغيير التي تحدثنا عنها. لاحظ معي.

﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾

إن التحدي للوصية الرابعة (وثيابك فطهر) هو ما فكرت به تماماً.. الفتور والإنتكاس. الكثير من الناس يتعدى المرحلة الأولى، فيمتص الصدمة ويتمالك مشاعره ويستعيد رباطة جأشه، ويعزم على التغيير والحركة والعمل، ويفوض أمره لله سبحانه. لكن إذا تتبعت سيرة حياته جيداً لم تشهد أي تغيير. التغيير الذي تحدثت عنه الآية الثالثة والرابعة، وهو تغيير الظاهر والباطن كما أسلفنا. وكما قلت يا صديقي.. الكثير من الناس يخفق في تحقيق تغيير حقيقي في حياته. فما الجدوى إذن إن كان ما جرى مجرد

حالة انفعالية وليس سلوكاً مستداماً؟ إن التغيير الحقيقي لا يكون بالأقوال ولا بالأفعال، بل من خلال عادات مستدامة. ولذلك جاءت الآية (ولا تمنن تستكثر)، فهي دعوة صريحة لاتباع عادات جديدة. وإذا ما مارست التأمل جيداً وتتبعت مشاعرك وأفكارك، تمكنت من امتلاك زمام التغيير. فالخاطرة تصبح فكرة والفكرة تتحول إلى عزيمة ففعل فعادة فطبع وسلوك. والسلوك والعادات هي التي تحدد مصيرك وليس الأحداث نفسها.

- جميل جداً. وماذا بخصوص المشاعر؟ كما قلت لك سيدي.. الكثير من الناس خرجوا من تلك الأحداث بقلب جريح، وما زالوا يتجرعون مرارة الظلم والحرمان، والشعور الطاغي بإدانة الذات وجلد الذات أو الحقد والنقمة على من ظلمهم مما أنهك قواهم، وأعمى قلوبهم وأبصارهم.

- ومن بقي على هذه الحالة لم يكن قادرا على تحقيق الوصية الخامسة (والرجز فاهجر). وأنى للقلب أن يتقبل الأفكار الإيجابية وهو على هذه الحال؟ إن شأنه يشبه الكأس المترعة بالألم، فلا يمكن ملؤها بأفكار إيجابية قبل أن تفرغها من الهواجس السلبية،

وهنا تأتي الآية السابعة وهي بمثابة بلسم شفاء لهؤلاء الناس (ولربك فاصبر).

فقلت بحيرة: لم أفهم!! تقول لي أن الصبر كفيل بالتخلص من المشاعر السلبية مثل جلد الذات والحقد والغل. ولكننا كلنا نصبر دون جدوى!

فسارع بلال بالجواب: لأنكم لم تفهموا ما معنى الصبر يا صديقي. الصبر ليس مجرد كلمة تقال ولا هو الإستسلام ولا الخنوع. الصبر فلسفة عظيمة للتعامل مع تلك الضغوط. ألم تسمع إلى الدعاء الجميل: (اللهم ألهمني القوة حتى أغيّر ما أستطيع تغييره، وألهمني الصبر على ما لا أستطيع تغييره، وألهمني الحكمة حتى أفرق بينهما).

للصبر يا صديقي ثلاث درجات.. الدرجة الأولى هي درجة القانطين، وفيها يزعم صاحبها أنه صابر إلا أن قلبه مترع بالحسرة والحزن والغضب والغل. والدرجة الثانية درجة العاجزين، وفيها تجد المرء راضياً بما حدث، ولكنه يبقى منتظراً الفرج دون الأخذ بالأسباب. أما الدرجة الثالثة وهي درجة العارفين، فهي المراد في هذه الوصية. الصبر هنا يعني أن تنظر بعين الإمتنان

تجاه ما تواجهه من أحداث أو ربما كوارث أو ظلم وطغيان، فلعلّ ما حدث يحفزك للبحث عن مخرج ويلهمك أفكاراً ما كانت لتخطر ببالك من قبل. الصبر هنا يعني التعامل مع تلك الأحداث وكأنها جاءت هدية من السماء لتحقق تغييراً حقيقياً يرتقي بحياتك نحو الأفضل. الصبر هنا أن نكف عن الشكوى والتذمر ونتحرك لاستغلال ما حدث والبحث عن الحلول الخلاقة والمبدعة. الصبر يصل بك إلى حدود بعيدة.. تصل بك أن تنظر إلى خصمك وعدوك اللدود نظرة امتنان لأنه علمك دروساً لم تخطر ببالك. فلا تشعر تجاهه بالغصة التي تحرق فؤادك، فقلبك سليم معافى لا مكان فيه للحقد ولا الغل ولا الغضب. لكن أنت طبعاً حريص وحذر فلا تدير له ظهرك ولا تعطيه الفرصة لينال منك. هذا هو الصبر الذي أتحدث عنه!

بدأ سيدي بلال يرتل تلك الآيات الكريمة بخشوع وأنا اتأمل المشهد العظيم. إمام الهدى في فراشه وقد سكت عنه الروع، وبدت على وجهه الكريم معالم السكينة والطمأنينة، فازداد محياه بهاء ونوراً. اليوم يا سيدي وبعد تلك الوصايا الخالدة صرت جاهزاً لأداء المهمة على أكمل وجه. سوف تشكّل هذه الوصايا

طريقة تفكيرك وتزيد قلبك بصيرة وعقلك إدراكاً، وسوف تمنحك العزم والثقة والتصميم. لقد تعلمت جيداً كيف تتعامل مع مشاعر الخوف والحزن والغضب، وسوف يبدو ذلك واضحا جلياً طوال سيرتك العطرة. وسوف تمضي في طريقك بقلب مفعم بالسكينة والرضا واليقين!

دار الأرقم

لا شك أن التجوال في حارات مكة القديمة وأسواقها تجربة مشوقة وجميلة. كان بلال حريصاً على أن يعرفني على أسماء الأحياء والأسواق والمعالم المهمَّة، وكانت له ذكريات وقصص ومغامرات من أيام الطفولة والصبا في كل مكان مررنا به. بيد أن المكان الأهم والذي يحتل منزلة خاصة قي قلب بلال هو دار الأرقم بن أبي الأرقم.

أخيراً.. وقفنا أمام دار الأرقم وطلب مني بلال ان أنظر من النافذة، ويا له من منظر يخطف الأفئدة ويسحر الألباب. ها هو حبيبي ومعلمي أبا القاسم في وسط المجلس وحوله نحو ثلاثين من أصحابه وأتباعه. المشهد حافل بأروع المعاني الإنسانية النبيلة. ها هم الرجال العظام والصحابة الكرام عمار وصهيب وأبو بكر وعمر وسعد وعثمان وحمزة. هم الآن يجلسون مع نبيهم ومعلمهم وقائدهم وعيونهم تقطر إجلالاً ومحبة وتقديراً له. ها هو سيدنا محمد ﷺ. يتوسط أولئك العمالقة العظام... أنظر إلى وجهه الذي اكتسى بملامح ملائكية تنبض بالطهر والنقاء. أنظر

إلى نظراته التي تقطر محبة ورقة وهو يجول النظر بين أصحابه وأتباعه، أنظر إلى حسن بيانه وحضوره الآسر وهو يتحدث ويوجّه ويعلم. كان هذا الرجل العظيم يستمع إلى أصحابه وينصت إلى لواعج قلوبهم، ويمسح على قلوبهم ويكفكف دموعهم. هذا هو النبي والقائد والمعلم والمربي، وقد شهد هذا المكان صناعة أولئك الأبطال الذين سوف يحملون الراية من بعده، وسوف يسطِّر التاريخ بحروف من ذهب أسماء هؤلاء الرجال من قادة وفاتحين وعلماء ودعاة، بهم ومعهم يتحقق قوله تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:110).

مضى بلال يتحدث عن معالم هذ البيت ويقول: لقد كان زعماء قريش يشعرون بالرعب والعجز أمام الصمود الأسطوري الذي سجله هذا القائد العظيم وأتباعه. لقد أجمع سادة قريش على ضرورة القضاء على هذا الرجل، وتفنن دهاة قريش في حبك الحيل واقتناص الفرص حتى ينالوا منه، ولم يتركوا طريقة ولا حيلة وضيعة إلا واتبعوها، أملاً منهم أن ينالوا من رباطة جأشه

وحضور قلبه وسرعة بديهته، لكن سرعان ما تبين أن كل جهودهم ضاعت سدىً!

لقد كان الرجل يعرف تماماً ما يريد، وقد رسم لنفسه منهجاً لا يحيد عنه. منذ اليوم الأول كان واضحاً وصريحاً وحاسماً، وسلاحه الحوار الهادئ والعقلاني والدعوة بالسلم. لقد جن جنون قريش وفقدت صوابها للهدوء والصلابة والثبات الذي أبداه هذا الرجل إزاء كل تلك المؤامرات والمساومات.

فأمعنت قريش في تعذيب المسلمين، ولم تترك طريقة يمكن أن تساهم في وأد هذه الدعوة وتوقف هذا المد الجارف إلا واستعملتها، فحوّلوا مكة إلى معتقل كبير، وانتقلوا من الصدِّ والسخرية إلى التعذيب الجسدي والنفسي مروراً إلى مقاطعة بني هاشم لمدة ثلاث سنوات ووصولاً إلى مفاوضات ومحاولات الإستمالة والإبتزاز.

أن تعيش في مجتمع لا يشاركك قيمك ومعتقداتك، بل ويناصبك الخصومة والعداء ليس شعوراً سهلاً على الإطلاق، ومن هنا فقد حرص رسول الله على تكوين مجتمع صغير من أتباع هذا الدين

على أن يلتقوا بشكل دوري في هذا المكان، هنا تجد عمّاراً وصهيباً وسعداً وأبا بكر وعبد الرحمن. هنا تنصهر كل الحواجز الطبقية والإجتماعية وتذوق طعم الأخوة الإسلامية بأسمى معانيها وأبهى حللها وأجمل تجلياتها.

صحيح أن الرسول الكريم ﷺ لم يكن يقوى على صدِّ التنكيل والعذاب من قريش، إلا أنه بحنكته وحكمته عمل على توفير العوامل التي تعيننا على الصبر والجلد والصمود. كنا إذا بلغ منا التعب والإنهاك وتسلل اليأس إلى قلوبنا نبحث عن الرسول الكريم ﷺ فنعود بنفوس مفعمة بالأمل والإرادة والتصميم. يكفي أن تنظر إليه وتطالع وجهه الكريم حتى تتساقط كلُّ مشاعر الضعف والتردد وتشعر بطاقة عجيبة تملأ جوارحك. رغم كلِّ الضغط والتعذيب الذي تعرض له، لم نشهد عليه موقف تردد ولا وهن ولا تراجع. لقد كانت معالم السكينة والهدوء غالبةً على وجهه حتى في أصعب الظروف، وكنا نراه قائداً يعيش بيننا ويتعرض للعذاب والتضييق مثلنا، إلا أنه كان يعرف تماماً ما

الذي يفعله وإلى أين هو ذاهب، وعلّمنا أن نتحدث مثله ونمشي على دربه، ولذلك أحببناه ووثقنا به واتبعناه!

عدت إلى سيدي بلال، لقد كان بلال أسطورة ومثلاً عظيماً في البطولة والصبر والتحدي، منذ نعومة أظفارنا ونحن نتناقل سيرته وقصص صموده، ونردد صرخته المدوية تحت وقع السياط.. أحد أحد!

ولطالما كنت أحلم بيوم أقابل فيه هذا البطل وأسأله أسئلة كثيرة حيرت عقلي ووجداني. بدأت أتأمل في قسمات وجهه الذي يجمع بين ملامح الوداعة والطيبة والإبتسامة العفوية الطفولية مع ما فيه من نظرات حادة وحاجبين غليظين توحي بصفات القوة والرجولة والعزم والإرادة.

سيدي بلال، وكأنك حينما تردد: أحد أحد، كنت ترمق جلاديك بسخرية واستهزاء، وأنت تعلم جيداً كم تغيظهم تلك الكلمة، فيضاعفوا العذاب. ألم تشعر حينها بالأسى ومرارة الظلم؟

نظر إليّ بلال وقال: اسمعني جيداً يا صديقي، عندما قابلت سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام وآمنت به، علمت يقيناً أن هذا هو دين الحق والعدل والمساواة، وقررت أن أتبع هذا الدين مهما كلفني من تضحيات. التجربة التي خضتها علمتني أن الجسد يتعرض لأنواع شتى من العذاب والألم والمعاناة، أما الروح فلها عالم آخر. إذا قررت أن تتحمل هذا العذاب من أجل تحقيق معنى عظيم تؤمن به وتضحي من أجله فلن تجد المعاناة طريقها إلى الروح. الحقيقة أن أمية بنَ خلف رغم قوته وجبروته كان هو الذي يعاني ويفقد أعصابه ويستشيط غضباً، بينما أنا أنظر في سخرية واستخفاف وأردد تلك الكلمة التي تستفزهم وتثير غيظهم، أنا العبد الضعيف الأسود كنت سيد الموقف بإصراري وصمودي، كنت أعلم يقيناً أن النصر قادم لا محالة، فكل ما نقدمه من صبر وتضحيات يهون في سبيل نشر رسالة الحق والدين.

المعادلة كانت بالنسبة لي سهلة وبسيطة.. أعلم أن المعاناة حاصلة لا محالة، وهذه هي سنة الله تعالى في الكون. إلا أني

كنت أمام خيارين، إما الرضا بالبقاء على الشرك وحالة الذل والعبودية التي أعيشها، وإما أن أعتنق الإسلام وأتحمل في سبيل ذلك كل التضحيات التي أقدمها بطيب خاطر. نعم، لقد كان هذا اختياري، وقد مضيت بطريقي بكل قناعة ورضا، فلم المعاناة إذن؟!

إن فلسفة المعاناة زاخرة في الأدب الإنساني وفي تاريخ الحضارات ومسيرات الشعوب. والمحكُّ هنا أن تعلم أن هناك ما يستحق أن تعاني من أجله، فتهون التضحية ويسهل العطاء. فهل وعدنا الحبيب المصطفى بالملك والسلطان، أم بالمال والرفاهية؟ أبداً.. بل وعدنا برضوان الله.. وعدنا بالجنة، ومقولته المشهورة خير شاهد (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة). فنحن نقدم أرواحنا وأموالنا رخيصة في سبيل الله تعالى. هذا ما علمنا إياه حبيبي ومعلمي محمد ﷺ.

أتعلم يا صديقي.. ليس المهم أن تربح الحرب بل أن تربح السلم. الكثير من الجماعات والحركات على مر التاريخ تعرضت لمثل هذه التجربة. البعض منها تولد عنده موروث عظيم من

الحقد وشهوة الإنتقام، والبعض الآخر وصل الأمر به إلى إدانة وجلد الذات وترك ندبات وجروح عميقة لدى أصحابها لهول ما تعرضوا له. التحدي الأكبر هو أن تستثمر هذه التجربة الصعبة فترتقي بنفسك وتسمو بروحك. وأزعم أن هذا ما فعلته. صحيح أنني صمدت أمام وحشية أمية بن خلف، إلا أن المهم أن تعرف كيف كانت مشاعري. لقد كان كلُّ همي هو رفع راية التوحيد، فشعرت بنشوة غريبة وأنا أتعرض لهذا العذاب، والحَقُ أنني كنت أُكثر من ترداد (أحد أحد) إمعاناً في السخرية من قريش، وربما رغبة في تلقي المزيد من السياط. لم تتملكني يوماً مشاعر الغضب والحقد ولا اليأس.. أبداً!

وإذا تتبعت سيرة هذه المجموعة من السابقين، فسترى أنهم خرجوا من هذه التجربة بأنفس راقية متصالحة متزنة، تتحلى بالقدرة على التعايش وتقبل الآخر. لم تجد مشاعرالكراهية والنقمة والحقد طريقاً إلى قلوبنا، بل المحبة والمشاركة والعطاء. هذه هي القيادة الفذة! لقد بنى الرسول الكريم ﷺ دولته وحضارته على أكتاف هؤلاء الرجال، وإذا لم تكن نفوس هذه المجموعة سويّة

فكيف تقيم عدلاً وتحمل رسالة؟ لقد أبدع القائد العظيم في بناء هذا الصرح الحضاري خلال هذه الفترة الصعبة ومن هنا جاء النصر والتمكين.

حالة غضب

كانت هذه المرة الأولى التي تبصر فيها عيناي مشهد المسجد الحرام على هذا النحو. لا أسوار ولا أبواب ولا أبراج ولا مآذن ولا بلاط. الجبال الشاهقة والموحشة تحيط بمكة المكرمة من كل صوب والكعبة المشرفة بهيبتها وجلالها تتوسط الساحة وسط رمال الصحراء المتوهجة في منتصف الظهيرة، وقد أحاطت بها الطرق الضيقة والبيوت والنوادي التي كانت قريشٌ تسهر فيها وتتسامر.

المشهد كان صاخباً بحركة الناس، فالكل بدا في حركة دائبة ونشاط متوقد. والناس تغدو وتروح وتتناوب في قدومها على الأسواق التجارية العامرة بكلِّ مستلزمات الحياة في ذاك الوقت، من طعام وشراب وقماش بالإضافة إلى مستلزمات الرفاهية من كحل ومسك وعطور وجواهر نفيسة.

كاد المشهد يظهر في حلة ندية بديعة تبعث الحياة في الروح، لولا وجود ما يعيبه ويشوهه! تلك الآلهة المزعومة! ما أقبحها وما أبشع هيئتها! الأوثان والأصنام التي ملأت أركان المسجد

الحرام، والناس من حولها ما بين راكع وساجد ومتوسل ومتقرب بالأضاحي والمال والجواهر. أين كان عقل قريش وهي غارقة في هذه التفاهات؟

وبينما كنت على تلك الحال، اقترب مني سيدي بلال وقال: منذ بدء الرسالة وحبيبنا المصطفى ماضٍ في طريقه بكلِّ عزمٍ وثبات، لقد واجه من قريش كلَّ أصناف الإيذاء والظلم والاعتداء من شتم وهمز ولمز وسخرية وضرب.

لم يهنْ قطُّ ولم تلنْ له قناة، بل مضى شامخاً رافع الرأس، مهيب الجانب، ثابت الفؤاد، لقد كان يحاجج زعماء قريش ويحيّر سادتها بهدوئه وصلابته. صحيح أن موازين القوة والمنعة كلَّها كانت لصالح قريش، لكنه كان دائماً سيد المواقف بلا شك. لقد كان يعرف جيداً كيف يخاطب قريشاً وكيف يفاوض وكيف يحاور. واليوم يا صديقي سوف تشاهد واحداً من أصعب المواقف التي مرت عليه ﷺ وتراقب ردة فعله.

فقلت: حسناً.. ولكن أين هو؟

أخذ سيدي بلال بيدي واتجه بي إلى الناحية الأخرى من صحن الكعبة.

اقتربت أكثر وأكثر حتى أراه بوضوح وأكحِّل عينيَّ برؤية وجهِهِ الشريف. هذا الرجل الذي وقف أمام العالم كلِّه وتحدَّى قريشاً بكل غطرستها وجبروتها، بعزم لا يلين وهمة ليس لها مثيل. ها هو يقف الآن خاضعاً ذليلاً بين يدي الباري. كانت قسمات وجهه قد توشحت بالخشوع والوقار.. بدا مستغرقا في خلوة روحية، غاب فيها عن العالم من حوله، غَيْرعابئ بالضوضاء ولا بالأصوات من حوله.. غارقاً في تسبيحه وابتهاله ودعائه.

وفجأة.. حدث أمر مريعٌ. مجموعة من سادة قريش ينظرون إليه بحنق وغيظ ويتهامسون وكأنهم يتآمرون أو يدبرون مكيدة، بعدها يقوم أحدهم، حاملاً بيديه سلا الشاة، ويتجه بها إلى حيث رسول الله ﷺ، فيلقيها فوق كتفيه الشريفين وهو ساجد، فيشرع أصدقاؤه بالضحك وتعلو أصواتهم بالسخرية والشماتة، حتى مال بعضهم على بعض وقد تملكتهم حالة هستيرية وماجنة!

لم أتحمل قذارة هذا المشهد، وشعرت بالدم يغلي في عروقي غضباً وغيظاً، حتى هممت أن أهجم على ذلك اللعين فأوسعه ضرباً وصفعاً! وما هي إلا لحظات حتى جاءت ابنته فاطمة، وبدأت تزيل الأوساخ عن كتفيه وهي تبكي، أما رسول الله ﷺ فقد استمرَّ بالسجود وأطال وكأنما شيئا لم يحدث! وعندما انتهى من صلاته نظر إلى فاطمة مواسياً إياها بكلمات لا تنمُّ إلا عن قلب صادق ويقين مطلق، حيث قال مطمئنا إياها: (إن الله ناصر أباك) ثم نظر إلى أولئك الأرذال، ودعا عليهم: (اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط).

نظرت إلى سيدي بلال وقلبي يعتصر ألماً، وإذا به ينظر بصمت والدموع تنهمر من عينيه، ثم بادرني بالسؤال: بماذا تفكر يا صديقي؟

فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لعل هذا الموقف من أشدِّ وأصعب اللحظات التي مرت به عليه الصلاة والسلام، ليس هيّناً أن يتعرض هذا الرجل بمنزلته ومكانته وعظمته لمثل هذا

الموقف؟ من أين له القدرة حتى يتماسك ويحرمهم الفرصة حتى ينالوا منه؟

لقد شرد ذهني وسرح بي الخيال وتساءلت: هب أن الموقف ذاته حدث معي. تخيل لو جلست يوماً في أحد المجالس العامة، فقرر بعض السفهاء أن ينالوا مني، فاقترب أحدهم مني وصبَّ فوق رأسي النفايات والأوساخ، ومن ثم تعالت أصوات السخرية والتشفي من قبل الحضور! من يملك القدرة أن يتعرض لمثل هذا الموقف، فلا يفقد رشده وتأخذه سورة الحنق والغضب إلى ما لا تُحمد عقباه. من يستطيع أن يخرج من ذلك الموقف إلا وقد سقط فريسة مشاعر المهانة والذل والانكسار.

التفت إلى سيدي بلال قائلاً: بالضبط يا صديقي..الموضوع هنا جدٌّ خطير! وهؤلاء الأنجاس يعلمون جيداً ما يفعلون، ولربما حلموا أن يتصرف هذا الرجل وفق غرائزه البشرية ويفقد اتزانه، فيستغلوا زلته وتكون القاضية. في هذه اللحظة تحديداً ربما كانت الكثير من العيون، عيون الأتباع والمحبين وعيون الخصوم

والكارهين على حد سواء، تراقب مجريات الحدث وتنتظر ردة الفعل.. ماذا عساه أن يفعل؟

نعم، لقد كان امتحاناً.. امتحاناً أمام مرأى ومسمع الجميع. لا تنسَ أن معادلات القوة ليست في صالحه.. رجل يقف وحيداً أمام مجتمع بأكمله، ويواجه أعتى سادة قريش وأكثرهم نفوذاً وأشدهم دهاءً وأوفرهم دناءة. رجل بمفرده، ليس معه سوى نفر قليل من المستضعفين وأكثرهم يكتم إيمانه. لا تنسَ أن الإمتحان جاء بغتة ومفاجئاً وقاسياً، ويلزمه ردٌّ سريع وحاسم. فكيف فكر هذا الرجل العظيم وكيف تصرف يتيم بني هاشم، والذي ترعرع في الطبيعة، فاكتسب من الجبل ثباته ورسوخه ومن السماء رفعتها وسموها ومن المطر طهره ونقائه.

فلتتوقف عجلة الزمان وليحبس التاريخ أنفاسه، ولنقترب أكثر لعلنا نفهم ماذا كان يدور في ذهن هذا الإنسان العظيم، وما المشاعر التي كانت تدور في صدره، والخواطر التي تتوارد في وجدانه!

لم تحدثنا كتب السيرة عن أفكاره ومشاعره إزاء هذا الموقف الخطير، وما أتحدث عنه الآن لا يخرج عن اجتهاد يحتمل الخطأ والصواب.

لعله كان مستغرقاً في سجوده بكل خشوع وخضوع، غارقاً في التسبيح والتبتل والدعاء، منفصلاً عن العالم، لا يشعر بما يحدث ولا ما يدور من حوله. وفجأة يشعر بأحدهم يقترب، وما هي إلا لحظات حتى يشعر بثقل يهبط على كتفيه، وقبل أن يستفيق من الصدمة تبدأ قطرات الدم والسوائل النتنة تسيل وتأخذ طريقها إلى رأسه وعنقه وكتفيه الشريفين. الرائحة المقرفة تخنق أنفاسه وتفقده القدرة على التركيز. وما هي إلا لحظات حتى وصل إلى سمعه أصوات من بعيد، همهمات وأصوات ضحك تتعالى. هستيريا من العدوانية تملكت ثلة من الأوغاد، ترجموها إلى حركات صبيانية طائشة وقذرة ودنيئة.

نعم.. لقد فعلوها إذن.. لقد أرادوا النيل من وقاره وكسر كبريائه وإهدار كرامته! فعلوها وهو يصلي بهدوء وسلام. وأين؟ في المسجد الحرام وأمام الناس وفي وضح النهار! ولكي يمعنوا في

الإيذاء، فقد أبلغوا ابنته الصغرى فاطمة بما حدث فجاءت مسرعة باكية، لتصدم بالحال الذي وجدت أباها عليه، فتُسارع وتركض باتجاه أبيها وتبدأ بإزالة النجاسة عن كتفيه وهي تبكي. أي أب يتحمل أن يقف أمام ابنته على هذه الحالة؟

لعله أطال السجود وهو يفكر. كيف أقدموا على هذا الفعل الدنيء؟ ولم يتصرفون بهذه الطريقة البشعة؟ أنا لم أسيء إلى أي واحد منهم مطلقاً ولم أطلب منهم شيئاً لنفسي. كل ما فعلته هو أن دعوتهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، ولم أسع إلى فرض دعوتي بالقوة. طلبي الوحيد لم يتغير: خلوا بيني وبين الناس! أكملت الأربعين من عمري في هذا البلد، ولم يتعرض لي أحد بسوء. أبداً! لقد حظيت بحب واحترام الجميع وسموني بالصادق الأمين. أوبعد أن بعثني الله هادياً وبشيراً أتعرض لهذا القدر من الإهانة والأذى والتنكيل؟ هل أستحق مثل هذه الأفعال الدنيئة من قومي وأبناء جلدتي؟

ولم يتصرفون بهذه الطريقة الجبانة؟ هل أرادوا استفزازي وطمعوا أن أفقد توازني؟ ربما يبحثون عن حيلة يسجلون فيها تنازلاً أو

تراجعاً أو سقطة في لحظة ضعف؟ ربما استفزهم منظر سجودي وإعراضي عن آلهتهم واعتبروا ذلك طعنة لكبريائهم وعبروا عن مشاعرهم بتلك الطريقة الخسيسة؟

كنت هائماً ساهماً موجوعاً حينما وضع سيدي بلال يده على كتفي قائلاَ: لعله درس خيارات الرد المناسب. الرد يجب أن يكون سريعاً وفعالاً وواضحاً. ولكن دعنا لا ننسى أننا لا نتحدث عن إنسان عادي. فنبينا ليس بالشخص الذي يسقط فريسة مشاعر الإنكسار والذل والمهانة، ولا هو بالشخص الذي قد يثور غاضباً فيفقد التركيز ويتخبط في التفكير ويسارع بردود فعل عشوائية تهوي به إلى نتائج وخيمة. هذا رجل تم إعداده وتدريبه جيداً لمثل هذا اليوم وسوف يستجمع قواه ويعمل فكره ويسيطر على مشاعره ويمسك بزمام الموقف ويتصدر المشهد. سوف يقلب الطاولة على أولئك السفهاء ويعطيهم درساً في الرجولة والعزة والرقي والكرامة!

ولاعجب.. أوليس هو من تعلم فن الصمت والخلوة والتأمل في غار حراء، فاكتسب حضور القلب والقدرة على التركيز؟ أليس هو من تعرَّض للخوف في مطلع الرسالة ثم جاء الوحي يثبته

ويعلمه كيف يتعامل مع مشاعر الخوف في سورة المدثر؟ أوليس هو الذي مسحت السيدة خديجة على قلبه وقالت (والله لا يخزيك الله أبداً)؟ نعم إنه هو! وهو الآن جاهز للتعامل مع هذا الموقف كما يتعامل القادة العظماء.. تعامل ينسجم مع قيمه العُليا التي تعود عليها وعرفه الناس بها!

هي ثلاث خطوات.. سريعة الإيقاع واضحة المعالم قوية الدلالات كما هو حال السورالمكية لمن درس القرآن!

1-**إطالة السجود**.. ما السر وراء إطالة السجود بدلاً من النهوض سريعاً والتخلص من تلك النجاسات؟ لعلها لحظات صمت تعود عليها في أوقات الخلوة تمنحه القدرة على استيعاب الموقف والسيطرة على المشاعر بحكمة ورويّة. لعلها رسالة قوية أراد توصيلها إلى أولئك الأوغاد.. لقد استفزكم سجودي لله وإعراضي عن أوثانكم وتخيّلتم أنكم بفعلكم هذا سوف أقطع صلاتي وأفقد تركيزي.. هيهات! سوف أستذكر قوله تعالى ﴿كَلا

لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ (العلق: 19) وسوف أطيل في سجودي وأتسامى في خشوعي ولن أتنازل أو أتراجع!

2-**الثقة**.. إن أصعب المعارك التي يخوضها الإنسان هي التي تدور رحاها في أروقة صدره وضميره وعقله، وإذا خسرتَ ثقتك بنفسك وتقديرك لذاتك، فطبيعي جدا أن يتفرق من حولك أتباعُك ويفقدوا ثقتهم بك. لقد وقف هذا الإنسان بعد أن فرغ من صلاته بكل عزة وشموخ. ووجه كلامه إلى السيدة فاطمة (لا تبكي يا بنية فإن الله ناصرأباك). سيرة هذا الإنسان العظيم تشهد أن احترامه وتقديره لذاته لم تهتز ولم تتزعزع مهما تعقدت الظروف وادلهمت الخطوب.

3-**الرد المناسب**.. نعلم جيداً أن التوقيت في تلك المرحلة لا يسمح بالدخول في مناوشات ومعارك غير محسوبة، وأن عنصر القوة الوحيد هو الكلمة.. القرآن هو الكلمة والدعوة إلى الدين هي الكلمة والمفاوضات مع سادة قريش هي الكلمة. والرد الصاعق الآن هو الكلمة. أنظر إليه...أنظر وهو يصوّب نظره إليهم في عزة وشموخ ويدعو عليهم بأسمائهم. وانظر ماذا يحدث.. لقد

تملكت مشاعر الخوف والخزي والعار أولئك الجبناء، فانسحبوا وهم يجرون أذيال الخيبة. وبعد قليل سوف يغادر المكان هو أيضاً رافع الرأس ثابت الخطا، وسوف يبقى كذلك في عيون أتباعه وخصومه على حد سواء.. صاحب منعة وهيبة وعزة ورفعة، مهما اشتدت الأهوال وضاقت الأحوال.

حالة ضعف

صلاة الفجر في هذه الأجواء لها طعم آخر لم تألفه في حياتك. الأفق البعيد بدأ يستقبل نور الشمس وهي تغزل خيوطها الذهبية، والصحراء الممتدة في حالة صمت وهدوء ونسمات الفجر تداعب شعرك ووجهك. تشعر أن العالم من حولك والطبيعة بأسرها غارقة معك في الخشوع وهي تسبح المولى سبحانه وتعالى. وعندما يكون إمامك بلال وهو يشق الفضاء بصوته الرخيم العذب، فأنت حتماً تشهد حالة من الحضور والخشوع لم تعهدها من قبل. بعد أن أتممنا الصلاة والتسبيح والذكر، بدأنا نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث. ثم بادرني سيدي بلال وقال: مهما قرأت في كتب السيرة العطرة وحلَّقت في قصصها وحكاياتها المشوّقة وتجوَّلت في أروقتها ومرابعها، فلن يكون الأمر كمن عاين المشهد عن قرب أو عرف بطل القصة عن كثب. حينما تكون على مقربة من البطل، بإمكانك الإنصات إلى نبضات قلبه، وملاحظة سكنات نفسه والتأثربخلجات جوارحه، ومراقبة أحاسيسه ومشاعره.

- أتفق معك تماماً..لكن ما مناسبة هذا الكلام؟

- مناسبته أني سآخذك اليوم في رحلة مهمة ومفصلية، وأريدك أن تشهد بعينيك ما لم تقرأه في كتب السيرة ولا سمعته من أحاديث الوعاظ.

- مستعدٌّ وكلي شوقٌ وحماسة!

- هيا..دعنا نركب إذن.

هذه المرة كانت وجهتنا إلى الطائف. من بعيد لاحت لنا شجرة نخيل باسقة، تتوسط مساحات خضراء شاسعة، تحيط بها الجبال من كل النواحي. فلما اقتربنا منها أكثر، إذ بنا نقف قبالة رجل يبدو في الخمسين من عمره.

كانت معالم الحزن العميق ترتسم على وجهه، وقد جلس لوحده وانفصل تماماً عن العالم من حوله.

ترجل سيدي بلال عن حصانه فتبعته وقلبي يخفق بشدة.

لقد كان الرجل هو سيدي رسول الله ﷺ، وكانت الواقعة لهذا اليوم واقعة الطائف!

الطائف مدينة ارتبطت بالألم في ذاكرة أي مسلم محبٍّ للنبيﷺ. لقد جاء إلى هذه المدينة يحدوه الأمل أن يستجيب أهلها إلى دعوته بعدما ذاق المرَّ من قريش. المسافة التي تفصلها عن مكة تقدر بنحو 130 كيلو وتحتاج نحو 28 ساعة مشياً على الأقدام. وقد قطع تلك الرحلة مشياً على الأقدام برفقة زيد بن حارثة. فمكث فيها عدة أيام يدعو أهلها (قبيلة ثقيف) إلى الإسلام. إلا أن النتيجة كانت مخيبة للآمال. فلم يتقبل أهل تلك المدينة دعوته، وأخرجوه منها بعد أن آذوه وطردوه!

اقتربت أكثر وأكثر حتى كدت ألمس رداء إمام الهدى، وبدأت عيناي تجولان في معالم وجهه وملامحه. اليوم أنت يا سيدي يا رسول الله في الخمسين من عمرك وقد بدأت خيوط الشيب تغزو شعر رأسك ولحيتك، تشعر اليوم بالضعف وقد ضاقت بك السبل وقست عليك الحياة وتخلى عنك القريب وتمادى في عداوتك البعيد، واليوم تجلس وحيداً حزيناً يا خير من مشى على الأرض. حالة الحزن تلك لم تزد وجهك إلا بهاء ونوراً وتألقاً.. نظرات الحزن التي ألمحها في عينيك تحمل خلفها ثقةً وسكينةً ووقاراً.

جلسة الحزين التي أتأملها تلك تحمل في طياتها عزماً وثورة وتصميماً.

اقترب بلال من سيدي رسول الله وجلس بجانبه، وصوَّب بصره نحو الأرض متألماً، ثم التفت إليّ قائلا:

لعلك تعلم يا صديقي أننا نشاهد الآن أحد أصعب وأشد المواقف التي مرت على الحبيب عليه الصلاة والسلام، حينها كان قد مرَّ على الدعوة عشر سنوات تامات. ولا تلوح في الأفق بارقة أمل، فما زالت قريش تضيق عليه الخناق وتطارد أتباعه وأنصاره، والسنون تمر ثقيلة موجعة. وأعداد الذين آمنوا به قلة من المستضعفين، وفي هذا العام تحديداً فقد نبيناﷺ عمه أبا طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها، فقد العم الرؤوف الذي كان يحميه من جبروت قريش، وفقد زوجته، قرة العين ومهجة الفؤاد وبلسم الروح. كان هذا العام بحق (عام الحزن)!

وكأن البلايا والمصائب لا تأتي إلا مجتمعة.. وفي ظل هذه الأجواء المكفهرة العصيبة، يعزم نبينا على إحداث تغيير في مسار الأحداث، فيشدُّ الرحال إلى الطائف علّه يجد فيها الأمان

والملاذ له ولرفاقه. لكن للأسف.. استقبله أهلها شرَّ استقبال، وسلطوا عليه صبيانهم وسفهاءهم فطاردوه وقذفوه بالحجارة حتى أدميت قدماه الشريفتان. ولم يتوقف أهلها عند هذا الحد، فقد أصروا أن يخبروا قريشاً بما حدث، فيعطوها الفرصة للشماتة والإمعان في الإيذاء.

- هل يمكنك أن تتخيل أسوأ من هذه الحال؟ خاتم الأنبياء وسيد البشرية والقائد العظيم تراه أمام عينيك في أسوأ حالاته.. ضعف.. وحدة.. حزن.. ضيق!

- ربما تشعر بالحزن والألم لهذا المشهد ولا غرابة، إلا أنَّ ما حدث اليوم كان نقطة تحول تاريخية، لا تقل في أهميتها عن حادثة الهجرة أو غزوة بدر بتقديري. لقد علمنا هذا القائد العظيم كيف نستثمر الفرص وأشباه الفرص بل وحتى أحلك الظروف وأشدها ضيقاً. انظر إليه.. انظر ماذا يفعل!

لقد بحث أولاً وقبل كل شيء عن النبع الذي يستقي منه القوة والثبات في لحظات الضعف، فلم يجد أفضل من العادة التي لزمها منذ مدة.. الصمت والخلوة والتأمل.. ففيها يجلو الفكر

وتسمو الروح، وفيها تهدأ المشاعر وتتبدد الوساوس، وفيها يمارس العبادة والدعاء ومناجاة الرحمن.

ها هو يرفع يديه إلى السماء ويبدأ بدعائه الشجي الرقيق يناجي ربه: **(اللَّهمَّ إليك أشكو ضَعْف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الرَّاحمين، أنتَ ربُّ المستضعفين وأنت ربِّي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؟ أم إلى عدوٍّ ملَّكْتَه أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكنَّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الَّذي أشرقَتْ له الظُّلمات، وصلحَ عليه أمر الدُّنيا والآخرة مِن أن تُنْزِل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتْبَى حتَّى ترضى، ولا حول ولا قوَّة إلا بك).**

تأمل معي هذا الدعاء الجميل الرقيق.. هذا ليس مجرد دعاء، بل هو رؤية راقية وتحليل ودراسة للواقع، ومنهجية متكاملة للتغيير. لاحظ كيف بدأ الحبيب المصطفى دعاءه **(اللَّهمَّ إليك أشكو ضَعْف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس)**. لم تكن لحظات التأمل تلك مجرد خواطر مشتتة ولا هواجس عاجزة، ها هو يحلل الأمور ويضع يده على الجرح، ويحدد بعين ثاقبة وعقل

منير نقاط الضعف.. **ضعف القوة، قلة الحيلة، الهوان على الناس.** قضي الأمر، وهانت الأمور. العامل الصعب في أي معضلة أو مرض هو التشخيص الدقيق، فإذا ما تمَّ ذلك يبقى العمل بتركيز ورويّة للتعامل مع المشكلة والبحث عن العلاج الفعال، تلك هي الحكمة وتلك هي العبقرية، وتلك هي العظمة التي تتجلى وأنت في أوج ضعفك!

- نقطة في الصميم! اليوم تشاهد الناس في مواسم الحج ورمضان يجتمعون بالملايين رافعين أيديهم لنصرة الإسلام والمسلمين، إلا أن الوضع ما زال على حاله. مشكلة الناس أنهم ينتظرون معجزة من السماء وهذا مخالف لسنن الله في التغيير السارية في الكون، ما هكذا فهم الرسول الدعاء وما هكذا علمنا!

- هذا الإنسان الذي تراه أمامك كان له شأن مختلف، أنظر إليه يا صديقي، وشاهد معالم العظمة والحكمة والعبقرية التي تتجلى في لحظة الضعف هذه. في لحظات الخلوة هذه تخلَّص من كلِّ المشاعر السلبية ولم يشغل باله في التصرفات الصبيانية التي قام بها أهل الطائف، ولم يندب حظه ولم تتملكه مشاعر الكراهية

والنزعة إلى الإنتقام. لقد درس الظاهرة بعمق واكتشف مواضع الخلل، ضعف القوة وقلة الحيلة والهوان على الناس. نعم.. أنت نبي وصاحب خلق وصاحب رسالة، لكنك الآن صرت تدرك أكثر من أي وقت مضى أن التمكين للرسالة بحاجة إلى قوة. ولذلك كان لا بدَّ من خطوات عملية للتغلب على الضعف وقلة الحيلة والهوان على الناس.

وحتى أعزز مقالي هذا بالأدلة والبراهين، سوف أقدم إليك المزيد من الشواهد التاريخية. خذ هذه مثلاً :

هل تعلم أن الخطاب قبل هذا اليوم كان باتجاه السماح للمسلمين بممارسة طقوس دينهم دون التعرض لأذى أو تضييق؟ كان جل ما يطلبه الرسول ﷺ هو (خلوا بيني وبين الناس). لم يسع في تلك الحقبة إلى تأسيس دولة ولا إلى استلام مقاليد الحكم ولا محاربة الشرك والمشركين. وربما لو أن قريشا لبت مطلبه لتوقفت الأمور عند هذا الحد. المسلمون عبارة عن طائفة تعيش في قريش لها معتقداتها وشعائرها شأنها شأن اليهود في يثرب. وهذا بالضبط ما كان يمكن أن يحدث في الطائف لو سمحوا له بنشر

الإسلام هناك. إلا أن ما حدث في الطائف كان نقطة تحول تاريخية، هل هو وحي من السماء أو عبقرية في التخطيط؟ لست واثقاً، إلا أن الشاهد هنا هو أن الاستراتيجبة تغيرت تماماً بعد هذا اليوم، فقد بات واضحاً أن عنصر القوة صار لازماً لضمان استمرار الرسالة، ومن هنا تغير الخطاب باتجاه مختلف تماماً. بدأنا نتحدث عن دولة وكيان وأمة تأتمر بأمره وتسير على نهجه ولا تخضع لهيمنة سلطان ولا أعراف قبلية أو عشائرية. وهذا ما يفسر سرَّ إصرار الرسول الكريم على عقد بيعة العقبة الأولى والثانية، كما يفسر سر بقائه ﷺ في مكة بعد إسلام اثني عشر شخصاً من يثرب.. ما الذي ينتظره وقد وجد الملاذ الآمن من جبروت قريش؟ لم لا يرحل فوراً ويبدأ بنشر دينه هناك؟ لو رحل في تلك اللحظة لدخل المدينة المنورة بصفته نبياً وزعيما لمجموعة من أهل يثرب، ولبقي على هذه الحال، فلا يملك السلطة لسن القوانين وإدارة البلاد وتسيير الجيوش. لكنه انتظر حتى دخل عموم أهل المدينة في الإسلام فدخلها بطريقة تليق بمقامه، واستقبله أهلها بصفته النبي والقائد والزعيم والحاكم.

- كلام خطير وأسمعه لأول مرة.. هذا يعني أن كل الذي تراه من أحداث عظيمة من بناء المسجد النبوي وتأسيس حضارة إسلامية مروراً بغزوة بدر وتبوك وفتح مكة وانتهاء بخضوع الجزيرة العربية قاطبة تحت حكمه، ما كانت لتتم لولا هذه النقلة النوعية في التخطيط، والتي تمخضت نتيجة التجربة التي خاضها هذا اليوم؟

- بالضبط يا صديقي. وبعد قليل، سوف ينهض من جديد.. واعجباه.. هذا الإنسان لا يكلُّ ولا يملُّ؟!! أبداً.. سوف يعود بعزم لا يلين وتصميم لا يحيد إلى مكة ليكمل دعوته من جديد، فرق كبير بين الضعف والهوان، بين الحزن والإحباط، بين الهزيمة والإنكسار. فتّش في مواقف السيرة كلها، وسوف تشاهد لحظات ضعف وحزن وهزيمة، وهذا طبيعي جداً في مسار أي فكرة إصلاحية أو في مسيرة أي مجدد أو صاحب رسالة، لكن الحرَّ لا يهون ولا يخضع ولا يمكن أن ينال خصومه من عزيمته أو إصراره.

طوال عشر سنين مضت، ورغم حالة الضعف، ورغم ما تعرض له من كافة أشكال التعنت والاضطهاد والتضييق، يبقى هذا القائد الفذُّ سيد الموقف! يتصدر المشهد ويحاور ويفاوض ويفرض شروطه ويحيّر خصومه. لم يتجرَّع كأس المهانة ولم يجزع ولم يتراجع. في كل يوم كان يراجع نفسه ويحلل الأحداث ويدرس الخيارات ويأخذ القرارت. لقد شكلت معالم شخصيته حالة فريدة جمعت بين لين الجانب وهدوء الطبع وفصاحة اللسان وحكمة المنطق وعبقرية الحوار. بعد هذا اليوم سوف ينهض هذا الرجل العظيم وينفض عن كاهليه الهمَّ والحزن، ولسوف يعمل بجلد وحزم حتى يحقق مراده ويدرك غايته ضمن رؤية واضحة.. القوة والحيلة والعزة!

بدأ نظري يجول في المكان الذي جلس فيه سيدي رسول الله. المكان كان محاطاً بالأشجار المثمرة، ولعله كان ينقل بصره بين الأشجار وما تحمله من أغصان وأوراق وثمار، والسماء والغيوم والجبال الشاهقة والطيور تطير من غصن إلى غصن بحثاً عن الطعام. مشهد مفعمٌ بالنضارة والحياة، نابض بالحنان والرقة.

ولكأنّما الطبيعة علمت بشأن ضيفها العظيم فتزينت بأبهى صورها واحتضنته بين ذراعيها علها تواسيه وتخفف من ألمه.

حالة سكينة

لا غرابة أن يعتمد المسلمون يوم الهجرة كأساس للتقويم الإسلامي، ففي هذا اليوم تحديداً تبدَّلت الأحوال واختلفت المعادلات، ولم نعد نتحدث عن مجموعة مطاردة ومضطهدة، بل نحن أمام أمة ودولة وكيان يُحسب له ألف حساب. نحن نتحدث عن حضارة ورسالة وثقافة ومجتمع وفي هذا اليوم يحبس التاريخ أنفاسه وتتطلع العيون إلى شخصين، شخصين فقط هناك في غار ثور، وقد جنَّ جنون قريش ورصدت جائزة تبلغ مائة ناقة لمن جاء بمحمد حياً أو ميتاً، وخرجت فلول قريش من الصباح الباكر، وانتشر الفتيان بين الشعب وفي السهول والجبال بحثاً عنه. الموضوع الآن صار الشغل الشاغل لقريش، وهناك في المدينة المنورة تسود حالة ترقب وشوق لقدوم إمام الهدى وصاحبه أبي بكر، مستقبل الأمة بأكمله وتاريخها متوقف الآن على سلامة هذين الرجلين القابعين في الغار!

وسط كل تلك الأحداث الجسام وهول الموقف وخطورة وتسارع الأحداث، أنظر من فتحة الغار.. ويا لروعة المشهد وهيبته

وبهائه. سيد البشرية جالس في هذا المكان الضيق وبجانبه صديقه أبو بكر، لا تلمح في وجهه أي تعبير يدل على توتر أو قلق أو خوف ولا ترى سوى مسحة عجيبة من السكينة والهدوء، ولكأنما ترقب رجلاً يرفل بأثواب النعيم وسط القصور والجنان، وأبو بكر يراقب حركة المشركين حول الغار، ويهمس: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه.

فيردُّ عليه رسول الله: (يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما)!

هذا هو أنت يا حبيبي يا رسول الله كما عهدناك.. لقد أديت دورك على أحسن وجه وأعددت للأمر عدَّته، فأحسنت التخطيط والتمويه حتى حيّرت بلدة بأكملها. تغادر بيتك وتنجو من الحصار الذي ضربوه لك حول بيتك وتخرج من مكة مع صاحبك فتتجه جنوباً عكس اتجاه المدينة المنورة وتسلك إلى المدينة طريقاً غير الذي اعتادت عليه قريش، وتمكث في الغار ثلاثة أيام.. طُرق عديدة ومتنوعة لتضليل المشركين عن الوصول إليك.

وبعد أن تؤدي ما عليك، ترفع ملفك إلى السماء وقد استقرت معاني التوكل والتفويض في وجدانك، فلا خوف ولا جزع ولا

وجل. السكينة حالة عجيبة وفريدة من نوعها نشهدها الآن مع هذا الرجل في واحدة من أشد اللحظات حرجاً في حياته! حالة السكينة تلك ظاهرة تستحق الدراسة. ألا ترى معي أن أشد قلوب الرجال بأساً وأكثرها شجاعة وبسالة تهتز وترتجف لمثل هذا الموقف المهول؟ ألم تسمع عن أبطال ومغاوير تهاوت أفئدتهم وزاغت أعينهم وسقطوا صرعى الخوف وتربص الأعداء وكيد الرجال؟ ليست السكينة حالة تشهدها في الأحوال الرغيدة والظروف المثالية، بل هي ثبات القلب ورباطة الجأش وسط أحلك الظروف وأكثرها حرجاً وخطورة. هل تستطيع أن تتحلى بالسكينة عندما تواجه كيد الخصوم أو يوم تُمنى بخسارة مالية فادحة أو مشكلة عائلية كبيرة أو ربما تردٍّ في حالتك الصحية؟

وقف بلال قرب الغار وهو يرمق صبيان قريش بسخرية وهم يتخبطون ولا يعلمون أن محمداً ﷺ على بعد أمتار قليلة منهم. نظر إليّ بلال وقال:

سوف يمضي هذا الرجل العظيم ويواصل رحلته نحو المدينة المنورة، وحينما يطارده سُراقة بن مالك ويدنو منه، يعرض عليه

رسول الله الرجوع ويعده بسواري كسرى.. وتدور الأيام وتفتح بلاد فارس في عهد عمر بن الخطاب ويتسلم سراقة سواري كسرى ويتحقق الوعد الصادق.

- سيدي بلال.. أمر يحيرني. كيف يمكن الوصول إلى حالة السكينة تلك وهو على هذه الحال؟

- الواقع أن حالة السكينة التي تشاهدها الآن مع الرسول الكريم ماهي إلا انعكاس لمنظومة تفكيره، ونتيجة حتميّة وطبيعية لسماته وشخصيته المميزة التي عوّد نفسه عليها من خلال أفعال وعادات متواصلة. الأمر يشبه تماماً ربان السفينة المحترف، والذي لا تلاحظ عليه علامات ارتباك لدى هبوب العواصف وتقلب الجو، بل يمسك عجلة القيادة بكل ثقة ويقود السفينة نحو بر الأمان. والسؤال الآن.. ما العوامل التي هيأت لهذا الرجل هذه الحالة من السكينة؟ صحيح أننا نتحدث عن نبيٍّ وقد وعده الله تعالى بالنصر والتمكين، ولا ننسى أن الإرادة الإلهية تدخلت للحيلولة بينه وبين كيد المشركين، إلا أن من المهم أن ندرك أن لله تعالى سنناً ونواميس يدير بها هذا الكون، ودورنا أن نتعلم من

هذه السيرة والأحداث أسرار تلك السنن، ونقتفي أثرها في سبيل صلاح أمر ديننا ودنيانا.

نعود إلى الحديث عن تلك العوامل، إن رب العالمين جعل لكل منا مكامن قوة يستعين بها وقت الشدة والكرب، وقد تختلف تلك المكامن من شخصٍ إلى آخر، ودورنا أن نبحث عنها ونعمل على تعزيزها وتقويتها، حتى تكون سلاحَنا في تلك الأوقات العصيبة، فهل تعلم أنت ما هي مكامن قوتك؟ إن هذا الرجل يدرك جيداً ما هي مكامن قوته وقد أجاد استخدامها ببراعة في هذا اليوم. ولنتحدث عنها الآن.

1- **الإيمان واليقين**.. والثقة بالله تعالى ورعايته له. وقد كان المعنى واضحاً في جوابه لأبي بكر (يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما). مفهوم التوكل واليقين ليست مجرد كلمات كما يرددها البعض وهي لا تنسجم مع إيقاع قلبه ولا ردود أفعاله. من فهم التوكل بحقٍّ، يدرك جيداً أن الرزق والنفع والضر بيد الله وحده وبتقديره، فلا يهاب الخصوم ولا الأعداء ولا يحمل هم

الرزق ولا المستقبل، يكفي أن يرفع يديه إلى السماء فيعود هادئ البال قرير العين.

2-العقل المدبر..عبقرية هذا الرجل كانت تتجلى أنه كان دائما يسبق أعداءه بخطوة، فيربك خصومه ويسيطر على الموقف ويفوّت عليهم فرصة المفاجأة، وهذا يبدو جلياً من خلال التدابير التي اتخذها من إخفاء موعد الهجرة، والاستعانة بعبد الرحمن بن أبي بكر لمحو آثارهم من الطريق، وسلوك طريق معاكس لتضليل المشركين، واللجوء إلى غار ثور لمدة ثلاثة أيام. ولا تحسبنَّ هذا السلوك مقتصراً على يوم الهجرة، بل هو ديدنه دوماً في العهد المكي وفي العهد المدني، في أدبيات السلم والمفاوضات وفي الحروب والمعارك.. ارجع إلى السيرة النبوية وسوف تلاحظ هذه السمة في مفاوضاته وحواره مع قريش، وفي الهجرة وغزوة بدر وصلح الحديبية وخيبر وفتح مكة، هذا الرجل الحكيم الهادئ توفرت لديه درجة عالية من الفطنة والذكاء وسرعة البديهة وقد استثمر تلك المنحة للتعامل مع تلك الملمّات على أحسن وجه.

3-القيم.. ألم تلاحظ ردة فعل سراقة بن مالك لما دنا من الرسول الكريم ﷺ حتى سمع حديثه مع صاحبه وظن أنه أوشك على الظفر به؟ لقد نظر إليه رسول الله ﷺ وقال له (ارجع يا سراقة ولك سواري كسرى). فاستغرب سراقة وقال: كسرى بن هرمز؟ فأجابه: نعم!

وبكل بساطة، توقف سراقة عن مطاردته وعاد أدراجه. سراقة كان وقتها مشركاً، وقد انطلق وراء هذا الرجل تسوقه الرغبة المحمومة بالحصول على الجائزة، مائة ناقة لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً، وفجأة يعدل عن هذا الاندفاع ويعود. لأن محمداً وعده بسواري كسرى! محمد المطارد والذي لا يملك قوة ولا جيشاً ولا مالاً يعد سراقة بسواري كسرى. كسرى من؟ ملك أعظم وأكبر مملكة وإمبراطورية في ذلك الزمان!

أنّى لسراقة أن يصدق هذا الكلام؟ لقد صدقه لأن محمداً عوّد نفسه وعوّد العالم من حوله أن لديه منظومة قيم لا يمكن التنازل عنها أو الإنتقاص منها تحت وطأة الخوف أو إغراء السلطة. الصادق الأمين كانت وستبقى قيمه التي عرفه الناس بها من قبل

البعثة وستظل ملازمة له في كل الأحداث والمواقف التي مر بها. لم يجرب عنه الناس كذباً ولا خيانة، يشهد بذلك القاصي والداني، حتى ألد أعدائه أبو سفيان. فلما سأل هرقل عظيم الروم أبا سفيان في اللقاء الذي تم بينهما عن نسب الرسول وأخلاقه وسلوكه أفاد أبو سفيان أنهم لم يجربوا عليه كذباً. عليك أن تراعي أن الموضوع هذا ليس سهلاً حتى على النخبة وصفوة البشر. تصفح التاريخ وادرس سير العظماء من قادة وفاتحين ودعاة ومجددين. كلُّهم رفعوا شعارات وعرفهم الناس واتبعوهم لأجل قيم تمثلت في سيرتهم وأعمالهم، إلا أن لكل حصان كبوة، وسوف يتوقف التاريخ عند مواقف خذل هؤلاء العظماء قيمهم الشخصية تحت وطأة الخوف أو بفعل بريق السلطة والسيطرة وسعياً نحو تحقيق الغلبة. فالقيم بطبيعتها ليست سلعة مربحة. شيء طبيعي أن تجني الربح السريع وتبسط سيطرتك عندما تتخلى عن القيم فتكذب وتغش وتبطش وتراوغ. الأمر هنا مختلف تماماً عند سيد البشرية. يمكنه دوماً أن يفاوض وربما يتنازل عن بعض حقوقه. أما موضوع القيم فقد كان دوماً خطاً أحمر! إنه يدرك جيداً أن

من أراد أن يسود الناس فعليه أن يسود نفسه أولاً. ولذلك بقيت سمات الصدق والأمانة صفة تلازمه مهما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال. فلا غرابة إذن أن يصدقه سراقة بن مالك، ولا أن يكتسب مهابة واحترام أتباعه وأعدائه على حد سواء. ولا تستغرب أنه عندما هاجر كانت أمانات أهل مكة بين يديه! ولم يسمح لنفسه أن يفرط بالأمانات، فعهد بها إلى علي بن أبي طالب على أن يلحق به فيما بعد.

لا تملك إلا أن تحبس أنفاسك وتتحسس قلبك أمام هذا المشهد الأسطوري. العشرات من فتية وفرسان قريش شاهرين سيوفهم، وقد بدوا مثل ضباع الصحراء الضارية وهم يتجولون ويزمجرون. خطوات فقط تفصل بينهم وبين النبي المختار. وهذا الرجل جالس في الغار وقد علت وجهه السكينة والوقار. وصاحبه المخلص لا همَّ له إلا أن يحمي حبيبه ويفديه بروحه. حق للعالم كله أن يتوقف عند هذا المشهد ويعلّم الأجيال قصص البطولة والإقدام. يعلمهم كيف حقق هذا الرجل حالة السكينة وسط تلك الأحداث من خلال سمات ثلاث.. **اليقين والعقل المدبر والقيم!**

حضارة بمفهوم جديد

أشرقت صباح يوم جديد، وأطلت الشمس بنورها البهيّ وأشعتها الذهبية على الحقول والمزارع وأشجار النخيل المترعة بأطيب أنواع التمور. نحن الآن في المدينة المنورة، واليوم نشهد يوماً غير عادي، وقد تدفق الناس من كل صوب باتجاه أرض لغلامين من بني النجار.

بلال ظهر بصورة لم أعهدها عليه من قبل. لقد كان وجهه ينطق بالحماسة والإندفاع وعيناه تلمعان في حماسة وفرحة بالغة، حتى بدا مثل الطفل الصغير الذي وجد والديه بعد طول غياب. كانت فرحته فرحتين.. فرحة لوصول النبي المختار مع صاحبه مهاجراً من مكة، وفرحة أخرى لأننا اليوم على موعد مهمٍّ.. اليوم نبني معاً المسجد النبوي!

- انظر يا صديقي.. انظر.. ها هو رسول الله هناك!

- نعم.. لقد رأيته! هذا هو الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد انهمك في العمل مع أصحابه. الكل يعمل في همة ونشاط وحماس. فمنهم من يحمل الحجارة، ومنهم من يبني اللبن، ومنهم من يرفع سعف النخل ومنهم من ينظف الأرض.

- وها هو النبي والزعيم والقائد ﷺ وسط جنوده وأتباعه يحمل اللبن وينقلها، ويعرض عليه أحد أصحابه أن يحمل عنه فيأبى، ها هو يعمل بلا كلل أو ملل ومن حوله عمر وعلي وعثمان وسعد ومصعب وأنس.

- بأمي أنت وأمي يا رسول الله.. ما عساك تفكر في هذه الساعة وماذا يدور في وجدانك؟ بالأمس كنت مهدداً بالقتل والخناق يضيق على دعوتك وأصحابك من جبروت قريش، واليوم تشرق شمس يوم جميل وأنت في أرض جديدة فتحت أذرعها إليك بالترحاب وغمرتك بالمحبة ودانت لك بالولاء والطاعة. اليوم في هذا المجتمع أنت النبي وأنت القائد وأنت الآمرالناهي، شتان بين الأمس واليوم.. لقد تغيرالمشهد تماماً وأمام القائد والزعيم الآن مهمات جسام وتحديات خطيرة. نحن الآن نشهد مشروع بناء مجتمع وأمة وحضارة. حضارة من نوع مختلف لم يعرفها العرب ولم يألفها العجم! كيف لك أيها القائد الملهم أن تبني هذه الحضارة في مجتمع بدائي؟

- المدينة المنورة شانها شأن باقي المجتمعات تغلب عليها النزعة العشائرية وتدين بالقوانين القبليّة. لم تجرب يوماً مفهوم

الدولة والقانون والمجتمع المدني، ولم تخضع لنظام اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي، دعك عن النعرة الطائفية والقبليّة وتهميش النساء والأقليات والموالي، والإستعلاء عن العمل. نعم الإستعلاء عن العمل.. فقد كان العمل باليد عيباً في عرف العرب، وقد كانت صناعة الدروع والأواني وغيرها من الأعمال قاصرة على المستضعفين والأعاجم. أما السادة فيعملون في التجارة أو يملكون الأراضي والمواشي والبعير! وفي الشمال يسمع العرب بحضارات فتيّة وقوية مثل الروم والفرس. بسطت تلك الحضارات سلطانها على أراضٍ شاسعة وتمتعت بأسباب القوة والمنعة. إلا أنها كانت خالية من كل المعاني الإنسانية. فقد هيمنت عليها غطرسة الحاكم وملئه، وساد فيها الظلم والقمع والطغيان. فرق كبير بين أن يؤمن الناس بك نبياً مرسلاً وبين أن تستوعب عقولهم هذه النقلة الحضارية الكبيرة. إن حركة المجتمعات تختلف عن حركة الأفراد، فغالباً ما تكون بطيئة ومتقلبة وعصيّة على التغيير.

- إذن لابدّ من منهج عملي ومدروس، منهج لا يفرض المفاهيم بالقوة، بل يعمل على تغيير المفاهيم والسلوك الإنساني وحركة المجتمع.

- قلنا من قبل.. إن هذا الإنسان يتمتع بعقلية استثنائية ليس لها نظير. مرَّ علينا فلاسفة ومنظرون وخطباء وزعماء.. الخطب الرنانة والأدبيات المجردة وحدها لا تبني مجتمعات ولا تغيّرحالاً. والزعامة تسوق الناس بالسلطان والقانون فإذا ما زالت عادوا إلى سابق عهدهم، أما الشخص الذي تراه أمامك فله شأن آخر. هذا شخص عمليٌّ يحمل مشروعاً ورسالة وحضارة. هذا الرجل سوف يبني أمة وحضارة لم تعهدها البشرية من قبل وخلال عشر سنوات، عشر سنوات فقط!

- السؤال هنا.. كيف.. وأين.. ومتى؟ لا بد أن نفهم!

- ولكي نفهم لا بدَّ أن نربط بين الأمور ونحلل مجريات الواقع. مشهد بناء المسجد النبوي اليوم يختصر الحكاية، فهو يحمل في جعبته العديد من الدلالات والرسائل ما يغني عن الكثير من الخطب والدروس والمواعظ. اليوم سوف يتعرف هذا المجتمع الوليد على معالم ثقافة لم يعهدها ولم يسمع بها من قبل، وترسم

الخطوط العريضة لهذه الحضارة وهذه الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: 110). وقد يقول قائل: ما شأن شخصية الرسول الكريم وعبقريته وحسن إدارته ونحن نعلم أن ما نشهده الآن ما هو إلا وحي من السماء وبرعاية من الله؟ وهذا صحيح، إلا أنه لا يتعارض مع كونه أصلاً شخصية استثنائية قادرة على فهم أبعاد الرسالة وتنفيذها على أكمل وجه. نعود إلى حديثنا. فمنذ اللحظة الأولى عمل المسلمون جميعاً بكافة أطيافهم وفئاتهم على بناء المسجد النبوي ومعهم سيد البشرية. هذا المشهد نسف مفهومين باليين في آن واحد.. مفهوم ازدراء العمل واقتصاره على فئة معينة، ومفهوم الزعيم الأعظم الذي يجلس في قصره ويصدر الأوامر.

- وفي هذا المسجد سوف نشهد وقوف الناس في صف واحد ومن خلفهم الأطفال والنساء. فلا فرق بين أبيض وأسود وبين غني وفقير وسيد وعبد. حتى الصبيان والنساء لهم مكانهم واحترامهم. أما مهمة رفع الأذان للصلاة وهي مهمة رفيعة المستوى فسوف يعهد بها إلى بلال لأنه أندى الناس صوتاً.

المهمة تتلاءم مع الكفاءة. نعم هذا الرجل الحبشي الأسود والعبد سابقاً مثلكم تماماً!

- وفي هذا المسجد تحديداً وتحت إدارة هذا القائد الملهم، سوف يجتمع الناس لمناقشة شؤون دينهم ودنياهم، ففيه يلتقي الشعب بقائده خمس مرات يومياً وفيه الصلاة والخطب والمواعظ، وفيه التدريس ومنه تخرج الجيوش وفيه تصدر الأحكام وينصف المظلوم. هل مرّعليكم مثل هذه الحضارة سابقاً؟ حضارة تجمع بين كلمة إقرأ ومفهوم التأمل. أتدري ما معنى هذا؟ هذا الجمع يحمل في طياته معانٍ ومفاهيم خطيرة كلمة إقرأ هي دعوة صريحة لامتلاك أدوات المعرفة واستثمار العقل والفكر. المعرفة تعني نبذ الخرافات واحترام المنطق والعلم، المعرفة تعني بناء الحضارات والرقي بالمجتمعات، أما حالة التأمل والبساطة التي تراها في هذا المشهد فإنها تتحدث عن الوعي والإنسجام مع الذات، وهنا تتجلى عظمة هذا الدين وإعجازه. سوف تشاهد من خلال سيرة هذا القائد العظيم سرّ تميزه في جميع الأحداث التي واجهها في مسيرته، فقد جمع بين الوعي والعلم، وما هذا إلا تطبيق حرفي لهذه الرسالة

الخالدة. لقد شهد التاريخ الكثير من النماذج لزعماء ومجتمعات وأمم. البعض منها اهتم بالوعي والنفس الإنسانية والفلسفة، فخرَّجت لنا فنوناً وآداباً، ولكنها لم تُعنَ بالعلم، فلم تبنِ حضارةِ ولم تعمر الأرض باختراعات ولا اكتشافات، وغزت عقولها الخرافات والشعوذة باسم الدين، وقدست الأشخاص وضلت عن سواء السبيل. كما شهدنا أمماً أخذت بأسباب العلم والمعرفة وأهملت الوعي، فبنت حضارات قوية ولكن دون ثقافة. فعمَّ الظلم والطغيان وشُنَّت الحروب وانتشر الفساد، وكان مصيرها أن انتهت واندثرت. روعة وإعجاز هذا الدين هو أنه الوحيد بين تلك الحضارات والمفاهيم الذي يدعو إلى تزكية النفس والوعي بالذات والأخذ بالعلم وأسباب التمكين وبناء المجتمعات.

- فهمت.. الحضارة بالمفهوم الذي يسعى هذا الرجل لبنائها تعود بجذورها إلى اليوم الأول الذي نزل فيه الوحي.. فقد كان في حالة تأمل.. ثم كانت أول كلمة من القرآن (اقرأ). ثم عاد جبريل مع كلمة (قم فأنذر). هذه الثلاثية هي التي كانت تحكم عقلية

هذا القائد والزعيم والمعلم. التأمل يعزز معنى الوعي والتفكر والثقافة التي يخرج من رحمها الأدب والفنون والأخلاق والسمو والقيم، واقرأ تحثُّ على بناء الحضارة والعلم وأسباب الازدهار ورقي المجتمعات، و(قم) تعني العمل والتغيير والحركة والبناء.

- حتى طريقة بناء المسجد وموقعه تمت بطريقة تنسجم مع تلك الفلسفة، فلسفة التزاوج بين الروحانية والمادية بشكل بديع ومتوازن. فهي بعيدة كلَّ البعد عن حال الكنيسة في المسيحية. الكنيسة لها معمار يتسم بالبعد عن المدينة، ويسود فيها جو الصوفية والتنسك والصمت وعلو الجدران. أما المسجد فيبني وسط البيوت وصخب الأسواق. في الكنيسة ينقطع الناس عن العالم، وفي المسجد يناقش الناس شؤون دنياهم، في الكنيسة تجد الصور والتماثيل والكل لا يتحرك إلا بأمر من القديس. في المسجد لا قدسية ولا رهبانية، وبإمكان أي شخص أن يدخل ويؤم الناس في الصلاة!

لقد قدم هذا القائد الملهم نموذجاً فريداً لهذا المجتمع الفتي، نموذج حضارة تجمع بين الروحانيات والأخلاق والقيم العليا التي تسمو بالإنسان وبين المادية وبناء الدولة التي تبني المجتمعات.

اليوم تقف يا سيدي يا رسول الله ومن حولك أصحابُك، وهم ينظرون إليك ويتعلمون منك أصول العمل الجماعي. وها أنت أيها النبي المختارتجمع الناس في هذا المكان وتكون فيه النبي والمعلم والواعظ والحاكم والقائد، واليوم سوف تشهد الدنيا بزوغ نجوم تسطع في تاريخ البشرية، تربوا على منهجك، فخرجوا يجوبون العالم دعاة وعلماء وقادة وفاتحين. عليك أزكى الصلاة وأتم التسليم يا سيدي يا رسول الله.

عقلية المنتصر

أخذت مكاني خلف بلال، ذلك الفارس الأسمر المغوار وقد امتطى صهوة جواده. الجواد يعدو بكل حماس ويأخذ طريقه يمنة ويسرةً، وأنا أراقب المشهد بكلِّ ذهولٍ. العشرات من المشاهد العجيبة تمر بسرعة أمامي عيني.. مشاهد لفرسان أبطال يرفعون راية التوحيد ويكبرون ويحمدون المولى، جثث متناثرة هنا وهناك، وأسرى يجرّون أذيال الذل والخيبة وفلول المهزومين تولي مذعورةً. نعم.. نحن الآن في نهاية يوم الفرقان.. غزوة بدر! اليوم يحقق النبي والقائد محمد أول انتصار عسكري على عدوه التقليدي قريش، بجيش قوامه 313 مقاتل مقابل نحو 1000 من المشركين. وسوف ينتشر الخبر في الجزيرة العربية ويتساءل الجميع من هو محمد؟ وما رسالته؟ وسوف يفرض اسمه ودعوته على الخريطة رسالةً وحضارةً وقوةً يُحسب لها ألف حساب!

الموقف كان مهيباً لأبعد حد، لدرجة أنني التزمت الصمت وانشغلت بمراقبة ميدان المعركة وحركة الجنود الأبطال. أما بلال فقد بدا وكأنه يبحث عن شيء ما، وبعد أن صعد إلى

إحدى التلال، هبط بجواده مسرعاً ودار به دورتين حول مجموعة من القتلى والجثث. ثم هتف بحماس..أنظر! أنظر إلى هذا! هذا هو أمية بن خلف والذي عذّبني في مكة، وساومني بأبشع الطرق حتى أرتدَّ عن دين الإسلام، وقد قتلته بيدي هاتين، وذاك هو أبو جهل وقد قتله عمار بن ياسر وهو الذي تلقي منه صنوف العذاب والأذى.

وأنظر إلى هناك.. ذاك الأسد، حمزة! وهذا علي بن أبي طالب حاملاً سيفه ذا الفقار، وهذا سعد بن معاذ والزبير بن العوام ومصعب وأنس. هؤلاء هم أخوتي ورفاقي الذين خاضوا ساحات الوغي بكل بسالة، وسطروا أروع آيات الشجاعة والبطولة والفداء! ثم أمسك زمام حصانه ومشى بهدوء وقد طأطأ رأسه بخشوع وتواضع، وتمهل الحصان في سيره وكأنه يدرك إلى أين هو متجه.. هو الآن يقترب من حضرة الرسول والنبي الأعظم، سيد البشرية وقائد هذا الجيش المنتصر. هاهو يتفقد ساحة المعركة محاطاً برجاله. تشهد على ملامحه معالم الفرحة بالنصر مع مسحة سماوية من الوقار والتواضع والسكينة. ها هو يشهد

مصرع أعدائه الذين تلذذوا بتعذيبه هو ورفاقه. أتذكر يا رسول الله؟ لعل شريط طويل من الذكريات المرة يمر أمام عينيك الآن. أتذكر يوم تآمر عليك ثلة من أوغاد قريش ووضعوا سلا الشاة فوق كتفيك الشريفين؟ يومها وقفت بعزة وشموخ ودعوت عليهم بالإسم. لقد استجاب الله دعاءك وآن الأوان لكي تشهد بعينيك مصرع أبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط! لقد علمتنا يا رسول الله أن الدعوات الصادقة سوف تنتصر حتماً بالصبر والعزم واليقين وأن الباطل مهما علا واستفحل فمصيره إلى زوال. وها نحن نرى بأعيينا. نعم.. لقد صدق الله عبده وأنجز وعده وأعز جنده! وقفت أراقب المشهد العظيم وقد أسر قلبي وجوارحي. ثم قلت:

- لا شك أن للنصر فتنة قد تفوق فتنة الهزيمة. فلطالمنا سمعنا عن قادة خطف بريق النصر أبصارهم وأعمى قلوبهم. فأخذتهم نشوة الغلبة وحادوا عن الطريق واختلطت الحسابات ودب الخلاف والنزاع بين صفوف الجيش المنتصر.

- صحيح يا صديقي. الأمر يختلف هنا مع سيد البشرية. فقد كانت رؤيته وعقليته دوماً محكومة بالقيم التي التزم بها. وقد كان يدرك جيداً أن قريش لن تفّوت تلك الهزيمة الموجعة بسهولة. وأن الخطر ما زال متربصاً من كل جهة. لقد تحرك بعدها وفق رؤية استراتيجية ثاقبة.

- وما هي تلك الرؤية الإستراتيجية؟

- يمكنك أن تسميها (هيبة الدولة). نعم.. لم تعد الأمور بعد غزوة بدر كما كانت عليه قبل الغزوة. والرهان الآن أن يفرض هذا القائد العظيم هيبة دولة الإسلام الفتية على القاصي والداني.

وقد تم ذلك من خلال ثلاث محاور:

1-قيمة العفو عند المقدرة..حتى مع الأعداء والخصوم. من الصعب أن تعفو عند المقدرة يا صديقي. لكن النبي ﷺ لم يمثِّل بقتلى قريش ولم ينكل بأسراهم. لم ينتقم لما فعلوه به، ولم ينتصر لحظوظ نفسه. بل بقي حتى آخر رمق يذكرنا بأن نصرة الفكرة هي ما يستوجب أن يحركنا. الفكرة هي الوجهة، ولتتحول كل السبل لتفضي إلى نصرتها.

2-لقد قبل الفدية بالأسرى، فالمال كما تعلم يلزم في بناء دولة ما زالت تخطو خطواتها الأولى، وأظنك تعلم كيف أنه طلب من الأسرى الذين يجيدون القراءة والكتابة تعليم المسلمين..مرة أخرى "من أجل الفكرة"، فالمال والتعليم عمودان من أعمدة بناء أي حضارة. لقد كان النبي ﷺ يمتلك أفقاً واسعاً ويفكر بطريقة إستراتيجية عظيمة. لقد استغل هذه الفرصة في سبيل تمكين دولة الإسلام الفتية بالمال والعلم.

3-القاعدة الأمنية.. فلم يمكث رسول الله ﷺ سوى أيام قليلة بعد غزوة بدر، وبدأ بالتحرك. لقد قرر التخلص من اليهود الذين كانوا يحيكون له المؤامرات. فما أن بلغه غدر يهود بني قينقاع حتى جمع جيشه وحاصرهم حتى استسلموا وتم إجلاؤهم. وكان له عدة غزوات حول المدينة المنورة مثل غزوة السويق وغزوة بني سليم وغزوة ذي أمر، والرسالة واضحة. هيبة الدولة!

ها هو محمد الرسول والقائد الأعظم ﷺ في طريق عودته إلى المدينة وحوله أصحابه ورجاله الغر الميامين، يمضي والراية خفاقة واصوات التكبير تصدح بالأفق في مشهد يحكي للبشرية

معاني العزة والبطولة والشجاعة. عليك الصلاة والسلام يا حبيبي يا رسول الله.

حالة هزيمة

الصورة القاتمة بكل ما فيها من مرارة تجتمع في هذا المشهد الذي أراه أمام عيني.. رائحة غبار المعركة تختلط مع رائحة الدم الزكي الذي روى تلك الأرض، وأصوات صهيل الخيول وصرخات المشركين الماجنة وآهات الجرحى تدمي القلب وتوجع الروح، حتى يخيل لك أن صخور الجبال ورمال الصحراء تراقب المشهد بصمت ولوعة وألم!

وهاهو خالد بن الوليد يدور بفرسه بزهو وخيلاء وقد حقق انتصاراً ساحقاً وحوّل الهزيمة إلى غلبة، وأبوسفيان يهتف: اليوم بيوم بدر! وهناك حمزة أسد الله وقد ارتقى شهيداً، وقد مثلت به هند وحاولت أكل كبده. لقد أسفرت غزوة أحد عن هزيمة قاسية للمسلمين بعد أن خالف الرماة أوامر الرسول الأعظم ﷺ وانطلقوا يجمعون الغنائم فاستغلّ خالد الفرصة وقاد الفرسان نحو جبل الرماة وباغت المسلمين بهجوم شرس، ففرق جمعهم وشتت جيشهم، حتى وقع رسول الله وكسرت رباعيته وشج رأسه وشاع بين الناس أنه قد قتل!

ها هو الرسول الأعظم ﷺ يدور بين جرحى المسلمين ويقف أمام جثمان عمه حمزة أسد الله، وقد ارتسمت على وجهِهِ علامات الحُزن العميق والألم والأسى. لقد تجرع مرارة الهزيمة، وذاق قلبه لوعة الفراق لأصحابه الذين ارتقوا شهداء.

رغم كل ما حدث، ورغم قساوة المشهد، لم أرَ في تعابير وجهه الشريف أي علامات توحي بالغضب ممن خالفوا أمره ولم ألمح فيه ما يوشي بالخذلان أو الإنكسار، هذا ما خطر ببالي وأنا أطالع سيدي رسول الله ﷺ وقلبي يتفطر ألماً لهذا المصاب، وهذا ما حدثته لبلال. كان بلال يصغي إلي بهدوء، ثم نظر إليّ ومضى يتحدث:

- لا شك يا صديقي أن رسولنا العظيم هو في النهاية بشر، يتفاعل مع تلك الأحداث ويهتزُّ لها قلبه وجوارحه، وتقرأ في وجهه الشريف معالم الفرحة والحزن، والبشر والألم. كان يملك حساً مرهفاً ومشاعر متوقدة، فما بالك وهو يُمنى بتلك الخسارة الفادحة؟ لا ريب أن هذا اليوم هو من أشد وأصعب الأيام التي مرت على هذا الرجل العظيم. قرابة ستة عشرعاماً مرت منذ أن

انطلق برسالته الخالدة، وتكللت جهوده أخيراً بتأسيس دولة وكيان في المدينة المنورة وسجّل نصراً مؤزراً في أول نزال له مع قريش، واليوم يُفاجأ بهزيمة قاسية تزلزل الدولة الوليدة.. ويقف يتفقد جراحه وينظر بعين الأسى إلى أتباعه وقد تجرَّعوا مرارة الهزيمة.

- كلي شوق وفضول لأدخل إلى أعماق نفسه وأفهم ما الذي يدور في خلده وهو على هذه الحال. ماذا عساه يفعل؟ وبم يفكر؟ وما الذي يدور في خاطره؟ وهل سوف تتنازعه مشاعر الغضب تجاه من خالفوا أمره من الرماة وتسببوا بهزيمة نكراء؟ هل سيوقع بهم أشدَّ أنواع العقوبة؟ هل سيرفع الراية البيضاء لقريش ويأمر رفاقه بالإستسلام ورمي السلاح؟

- أبداً يا صديقي، كان طول الوقت رابط الجأش، مهيب الجانب، ثابت الأركان. كان دوماً يمسك بزمام الأمور ويسير في طريقه من غير تردد ولا تخبط ولا وجل. كان عقله حاضراً وقلبه متوقداً، وكان في كل حين يعرف ما يريد!

الطريقة التي سوف يتعامل بها مع هذ الحدث الجلل سوف تحدد النتائج والتبعات، فإما تراجع وانتكاس أو لملمة الجراح ومواصلة المسيرة بعزيمة أمضى وقلب لا يهون.

لقد درس الواقع جيداً وحدد مواطن الضعف، وسرعان ما لملم جراحه ونهض من كبوته وانطلق من جديد. انطلق ضمن خطوات مدروسة وخطة محكمة.

لقد كان يعلم ﷺ أن الخطورة الأشدَّ تكمن في أثر الهزيمة على رجاله.. هل سيسقطون نهباً للشعور بالذنب وتحقير الذات؟ هل سيتراشقون الإتهامات ويتبادلون اللّوم والعتاب؟ وماذا لو ساقتهم مشاعر الغضب للإنتقام من المنافقين واليهود ومن لم يشهد القتال؟

- الوضع خطير بلا شك.. نحن نتحدث عن روح معنوية توشك أن تتهاوى.. نتحدث عن الخطر المحدق من المشركين.. نتحدث عن ذلك السوس الذي يهدد سلامة واستقرار المدينة. ذلك السوس المسمى بالمنافقين، وخطرهم بنظري أشدُّ من المشركين.

- بالضبط يا صديقي.. نحن الآن أمام ثلاث فئات.. أصحابه وجنوده وأنصاره، المشركون، والمنافقون الذين انسحبوا قبل المعركة وعددهم 300 رجل بقيادة رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول.

راقب الرقي والرجولة في الطريقة التي تعامل بها مع جنوده. لم يُشر بأصبع الإتهام واللوم إلى جنوده حتى الرماة والذين يتحملون جزءاً غير يسير من تلك الهزيمة، ولم يعاتبهم أو يحاسبهم. وهو لم يكتف بذلك فحسب، إنما جمع جنوده من جديد ليواعد جيش الكفار المنتصر في حمراء الأسد، وبالرغم من أنه لم يحدث نزال بسبب انسحاب أبي سفيان، إلا أن هذا القائد العظيم أوصل من خلال هذا التصرف رسالتين.. رسالة إلى أصحابه وأتباعه بأنهم سوف يبقون موضع ثقته واعتزازه، ورسالة إلى الأعداء أن شوكة المسلمين لم تنكسر ، وأنهم ما زالوا قادرين على المواجهة والقتال.

رفض رسول الله ﷺ أن يخرج معه إلا من شهد بدراً، ورغم أنه قد تلقى تهديداً من قريش بأنهم عازمون على القضاء عليه إن لاقوه، إلا أنه لم يتراجع، بل قال ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾

(آل عمران: 173)! لقد حَرص كلّ الحرص على أن تبقى الروح المعنوية في أعلى درجاتها عند أصحابه ورجاله. وكعادته عزَّز هذا السلوك بطريقة عملية، فأعاد لجنوده ثقتهم بأنفسهم وحفظ لهم هيبتهم وواصل طريقه بهم ومعهم، وصدق فيه قوله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ ﴾ (آل عمران: 159)

– هذا بشأن جنوده وأنصاره، فماذا بشأن المنافقين؟

– المنافقون فئة تظهر الإيمان وتضمر الكفر والبغض، ولا يمكن التهوين من خطرهم، فهم يحيطون به ويصلّون معه ويحيكون المؤامرات بالقرب منه. الغريب أنه لم تسجَّل حالة مواجهة واحدة بين رسول الله ﷺ وتلك الفئة. لقد كان يؤمن أن التعامل الأمثل مع عش الدبابير هذا (إن جاز التعبير) هو التجاهل وليس المواجهة، فأي تجمع يقوم على أساس الكذب والخداع والنفاق يفتقد لأدنى مقومات الاستمرارية وسوف ينهار من تلقاء نفسه، وهذا ما حدث!

- الطريقة التي تعامل بها الرسول ﷺ مع تلك الفئة من الخصوم (وسَمِّها ماشئت من الأسماء المعاصرة..السلبيين.. الحاقدين..الحاسدين..السفهاء) كانت طريقة تنمّ عن بعد النظر وسعة الأفق. صحيح أن خطر تلك الفئة أشد من خطر المشركين واليهود، وصحيح أن عددهم قليل نسبياً وفي متناول اليد (وقد أخبره الوحي بأسمائهم ولم يشارك هذه المعلومة إلا مع أمين سره حذيفة بن اليمان)، إلا أنه لم يقدم على ملاحقتهم ومحاكمتهم بتهمة الخيانة.

- والسؤال لم؟ لأن جلَّ همه كان بناء المجتمع المسلم حضارة وضميراً وسلوكاً، ولا وقت لديه للإلتفات إلى أولئك السفهاء، والدخول معهم في معارك جانبية. ولأنه كان يسعى سعياً دؤوباً إلى إرساء مبادئ مهمة في هذا المجتمع قائمة على قبول الآخر وحرية الرأي. ما كان ليصدر منه أي تصرف يتنافى مع تلك المبادئ والقيم، وبهذا رسم لنا هذا الرجل العظيم الطريقة المثلى للتعامل مع تلك النفوس المريضة.. مواصلة العمل والإعراض

عنهم وتجنب الاحتكاك معهم ما أمكن ذلك. تلك هي الحكمة والفطنة والمروءة بأبهى معانيها!

اقتربتُ أكثر وأكثر حتى تبدت لي الصورة عن قرب. ها هو رسول الله ﷺ في طريق عودته إلى المدينة وحوله أصحابه ورجاله، رافع الرأس ثابت الخُطا. هذه نفوس لا تعرف الهوان ولا تتقبل الهزيمة. هذه نفوس لا يحط الإخفاق من عزيمتها ولا يزيدها إلا بأساً وعزيمة وإخلاصاً. هذه نفوس لا تلقي اللوم على الأصحاب والأعوان.. بل تعلمهم درساً جديداً وتكمل المسير. هذه نفوس تلهم تلك المعاني العظيمة لأتباعها فتسري في قلوبهم وأرواحهم ويسود بينهم جوٌّ من العزة والبطولة تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (آل عمران: 139-140)

حالة شك

لا أدري كم مضى من الوقت ونحن نطالع المشهد من خلال النافذة.. أنا وبلال واقفان الآن عند بيت أبي بكر الصديق، ومن خلال النافذة استطعنا أن نتعرف على الوجوه.. سيدي رسول الله ﷺ كان قد حلّ ضيفاً عند صديقه أبي بكر الصديق وزوجته وابنته عائشة. الحديث اليوم غير اعتيادي والجو مشحون ومضطرب ويلقي بظلاله الكئيبة على وجوه الحاضرين فلا ترى عليها إلا ملامح الحيرة والأسى.. الحدث اليوم صعب وجلل ويختلف تماماً عن أي موقف مرَّ به هذا الرجل العظيم طيلة حياته.

خاطبني سيدي بلال قائلاً : كان رسول الله ﷺ قد اصطحب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في إحدى غزواته، وعندما أرسل الرسول ﷺ بمؤذن يؤذن في الناس للرحيل، فقدت السيدة عائشة عقدها، فرجعت إلى المكان الذي فقدته فيه تبحث عنه. وفي هذه الأثناء جاء النفر الذين كانوا يقودون هودجها، فظنوها فيه، فحملوه، ولم ينتبهوا إلى خفة الهودج لخفة وزنها ذلك الحين،

ورحلوا. فعادت عائشة بعدما وجدت العقد، فلم تجد أحداً. لقد تحرك الرَّكب ورحل الجيش وتركها وحيدة في هذا المكان. فقعدت فيها وتلفعت بعباءتها، ظناً منها أنهم سيفقدونها ويعودون إليها، فغلبها النعاس ونامت عيناها.

لم تستيقظ السيدة عائشة إلا حينما حضر صفوان بن المُعَطَّل، وكانت مهمته جمع ما سقط من أفراد الجيش، فلمّا رآها عرفها. حيث إنه كان يراها قبل نزول الحجاب. فاسترجع وأناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمةً واحدةً، ثمّ سار بها يقود الجمل، حتى قدم بها إلى الجيش.

وكأن الفرصة بدت سانحة أمام المنافقين، ليبثوا سمومهم ويطلقوا نيران حقدهم الدفين..لقد اتهموا السيدة عائشة بالفاحشة! وانتشر الخبر في المدينة المنورة انتشار النار في الهشيم، فلم يبقَ بيت في المدينة إلا وعلم به أوتحدث عنه!

تنهدتُ متأثراً، ثم عقبت قائلاً: ويحهم! كيف سوَّلت لهم نفوسهم هذا العمل الخسيس والفعل الدنيئ. عائشة؟ زوج رسول الله وموضع محبته وثقته وأم المؤمنين؟ العياذ بالله!

أطالع وجه سيدي رسول الله وهو جالس في بيت صاحبه وأتساءل.. بماذا تفكر يا أنقى الرجال؟ وكيف يا ترى ستتعامل مع هذه الأزمة التي عصفت بك وببيتك وبالمجتمع بأكمله؟ أنت اليوم نبي الأمة ورأس السلطة فيها وقائدها، إلا أن المجتمع بأكمله مشغول بالحديث عن هذا الموضوع. يخوضون في عرضك! وأنت من أنت، وهي من هي! الحبيبة القريبة، الطاهرة العفيفة، الصديقة بنت الصديق! ربما قد تعودت أن تطعن في عقلك وصدقك ورسالتك من قبل خصومك وأعدائك، ولكن الطعنة هذه المرة أتتك ممن حولك، والطعنة هذه المرة تمسُّ بيتك وزوجتك وعرضك.. لقد كانت حادثة الإفك ضربة في الصميم!

انتشلني سيدي بلال من غرقي في ألمي وتأملي قائلاً: لم يتدخل الوحي لفترة طويلة قاربت الشهر أو ما يزيد، وترك سيدي رسول الله يعالج الأمر بنفسه. كانت أمامه العديد من الخيارات للتعامل مع الموقف. كان من الممكن أن يلاحق كلَّ من تطاول بلسانه وأطلق الشائعات وتجرأ على الأعراض. كيف لا وهو

الحاكم المطلق والزعيم والقائد، وكان من الممكن أن يوقع العقوبات بعائشة ليثبت للجميع أن أحكام الدين تطبق على الكل بلا استثناء حتى لو كان هذا "هذا الكل" أهل بيته! ولكنه لم يتصرف على هذا النحو، فقد عوّد نفسه وعوّد أتباعه على اتباع لغة العقل والمنطق، وتحري الدلائل وعدم إطلاق الأحكام إلا بوجود أدلة دامغة.

- يا إلهي ما أصعب الموقف! أظن أن ما يزيده سوءاً وتعقيداً الغموض الذي يكتنفه..فلا يوجد دليل ولا برهان يثبت أو ينفي تلك الشائعات.

- تماماً.. هذا بالضبط ما قد حدث يا صديقي.

- وكيف وصل رسول الله ﷺ للحل وكيف حسم الموقف؟

- الموضوع الآن كما قلنا في غاية التعقيد والحساسية، فهي لم تعد مسألة شخصية. بل هي الآن قضية مجتمع ورأي عام.. الحديث في هذا الموضوع صار الشغل الشاغل لأهل المدينة، وسيد المدينة صامت يفكر ما عساه أن يفعل. والصمت هو

عادته حتى يعمل الفكر وتجلو الحقائق ويستقر الوجدان. ولكن حالة الصمت تلك لن تدوم طويلاً، فلا بدَّ أن يتحرك ويواجه الموقف بشجاعة ووضوح كما علّمنا، من أجل ذلك اتبع الرسول الأعظم ﷺ ثلاث خطوات.. مشاورة أصحابه المقربين، ومواجهة الرأي العام، وأخيراً... مواجهة عائشة نفسها!

لقد بدأ أولاً بطلب الرأي من أصحابه المقربين، علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد. فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير. سمع رسول الله ما أشار به أصحابه عليه.. فلم يزدد إلا حيرة ولم يصل إلى نتيجة.

إلا أن الأمر الذي فاقم من ألمه عليه الصلاة والسلام وأقضَّ مضجعه هو الدور القذر الذي لعبه المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، والذي لم يألُ جهداً في التأول على عرض

أم المؤمنين رضي الله عنها ونشر الشائعات. وهنا جاء دور الخطوة الثانية.. مواجهة الرأي العام، إن أي تصرف قاسٍ تجاه ابن سلول قد يؤدي إلى عواقب لا تحمد عقباها. فالرسول الأعظم ﷺ يدرك أن القوم ما زالوا يحملون بعضاً من إرث الجاهلية بما فيها العصبية القبلية، فقام رسول الله وجمع الناس وخاطبهم وهوعلى المنبر: (يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي). فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج وقد أخذته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتثاور الحيان، الأوس

والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

- يا إلهي! مقولة أفك من شخص نجس كادت تهزُّ أركان الدولة الإسلامية، وتزرع بذور الخلاف بين كبار الصحابة الكرام! ألا لعنة الله على النفاق وأهله!

- لقد كانت أياماً عسيرة وموحشة يا صديقي، وها هو الموقف يزداد تعقيداً وغموضاً فكما ترى، لقد ثارت الحميّة القبليّة وكادت تنشب حرب بين الأوس والخزرج، وقد انتبه سيد المدينة عليه الصلاة والسلام لذلك، فتدارك الأمر وفضَّ المجلس بسرعة قبل أن يتفاقم الموقف وتمتد الفتنة.

- إذن لم يكن خيار التصدي بحزم لابن سلول مناسباً، وسوف يعود رسول الله إلى سلوكه المعتاد مع المنافقين.. الإعراض ومواصلة المسيرة. وبذلك انتهت الجولة الثانية بلا نتيجة أيضاً!

- تماماً، ولم يبقَ حينها إلا خيار واحد.. مواجهة عائشة والحديث معها بوضوح وشفافية.

بدأ قلبي يخفق وبدأت جوارحي تتأهب! الموقف محرج وعسير!

- أعلم يا صديقي..أعلم تماما كم هو عسير على نفس الرجل الحر أن يواجه زوجته وأنس قلبه وحبيبة عمره وابنة أقرب أصدقائه إليه بتهمة وأي تهمة؟ الفاحشة!! كان الموقف سيقطر انكساراً وأسى لو كان مع أي زوجة من زوجاته، فكيف تراه سيكون مع عائشة؟ ابنة أبي بكر الصديق الرقيق، الذي ساند الدعوة في كل مراحلها بل كان أولَ وأقوى من ساندها وبذل من أجلها كلَّ ما يملك؟

ها هو رسول الله وسيّد المدينة يهم بالحديث.... لقد بدأ رسول الله وكسر جو الصمت والوجوم الذي خيّم في البيت، فتشهد ثم قال: أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

فسكتت عائشة ثم قالت لأبيها: أجب رسول الله ﷺ فيما قال. قال: والله، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقالت لأمها: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

عندها لم تجد عائشة بُداً من أن تدافع عن نفسها فقالت: إني والله لقد علمت. لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقني. والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف حينما قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾!

(يوسف: 18)

عندما تراقب هذا المشهد وتقلبه من جميع جوانبه لا تملك إلا أن تقف إجلالاً وإكباراً لهذا الرجل العظيم والزوج الحكيم. يا حبيبي يا رسول الله! لم تعالج الموضوع بشكل انفعالي ولم تأخذك المخاوف والظنون للحكم على زوجتك، وقد خلا خطابك من لهجة التهديد والوعيد ولم يخلُ من الرأفة والرحمة. لقد اخترت المكان المناسب، في بيتها وبين والديها صوناً لكرامتها وتعزيزاً

لمكانتها. لقد بدأت حديثك بالتشهد كما تعودنا عليك. ثم دخلت في الموضوع مباشرة وذكرت ما بلغك. (بلغني) فقط من غير استنتاج ولا إصدار أحكام ولا تخمين ولا ظنون.. وأعطيتها الفرصة للتوبة والإنابة في حال أنها أخطأت. ثم استمعت إليها وأعطيتها الفرصة كاملة حتى تدافع عن نفسها وتقول ما لديها.

ولم يغادر رسول الله بيت صاحبه أبي بكر حتى نزلت براءة السيدة عائشة من فوق سابع سماء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١﴾ (النور: 11)

ظهر الحق وتبددت الظنون وحلت علامات البشر والسرور على سيد البشرية، وقد قدم للعالم درساً في التعامل مع الحياة الزوجية والعدالة وتحكيم لغة المنطق والحكمة والتعايش.

حالة غيرة

في هذا اليوم، أخذني بلال في جولة على الأقدام في حارات المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلوات وأتم التسليم. كان الحديث جارٍ بيننا عن معالم شخصية هذا الإنسان والقائد الذي حقق إنجازات عظيمة في فترة قصيرة من الزمن. لقد استعرضنا سوياً سمتي القوة والحزم اللتين برزتا بقوة في تعامله مع الخصوم سواء أكان ذلك في العصر المكي أو المدني.

وبعدما حدثني سيدي بلال عن عدة مواقف شهدها من رسول الله، بادرته قائلاً : أفهم جيداً حرص النبي الكريم على المبادئ التي دعا إليها بِلا هوادة ولا تنازل، لكن السؤال الذي يخطر ببالي ويحيرني: كيف استطاع النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام أن يوازن بين الحزم واللين وبين الشدة والرحمة في تعامله مع من حوله؟ أعلم تماماً أن المدينة المنورة قد ضمَّت خيرة البشر بعد الأنبياء، وأن ساكنيها تمتعوا بقدر عال من الأخلاق والقيم الرفيعة. لكنها في النهاية لم تكن المدينة الفاضلة، ولا بدَّ أن رسولنا الكريم ﷺ قد واجه عدة أخطاء من أفراد المجتمع المدني.

ولا أخال إلا أن الموضوع صعبٌ وحساس عندما يكون هو المربي والحاكم والمعلم والأب الرحيم، فضلاً عن كونه النبيَّ المختار. إن تعدد المهام في شخص واحد يجعل الخيار صعباً بين الشدة واللين، العدالة والرحمة، الحزم والتغاضي.

صمت سيدي بلال قليلاً وقال: بالفعل يا صديقي.. لم يخلُ مجتمع المدينة من تلك الأخطاء البشرية، فسكان المدينة بشر، والبشر معرضون للخطأ والوقوع في الهفوات. وقد كان هذا الرجل العظيم يدرك ذلك جيداً، ويتعامل مع المواقف كلِّها بحكمة بالغة وبحلم وصبر. ولعلك لاحظت في موقف الأمس كيف ثارت حمية العشائرية بين خيرة أصحابه بسبب دفاع سعد بن عبادة عن عبدالله بن أبي بن سلول، حتى أوشكت الحرب أن تنشب بين الأوس والخزرج. في موقف كهذا كانت النفوس محتقنة والأجواء مشحونة، فهدَّأ القوم وفضَّ المجلس دون أن يعلّق أو يناقش.

أتدري يا صديقي..يعلمنا رسول الله أن الصمت قد يكون الجواب الأبلغ، لا سيما إذا شعرنا أن الدخول في مساجلات قد

يؤدي إلى مشاحنات نحن في غنى عنها، وهذه كانت سمة واضحة في تعامله ﷺ مع من حوله، خصوصاً إذا لاحظ غياب لغة المنطق والحكمة وغلبة العاطفة والغريزة البشرية.

سكت بلال قليلاً ثم قال: سوف أصحبك اليوم لترى بنفسك أحد تلك المواقف. أمسك بلال بيدي ومضى بي مسرعاً حتى وصلنا إلى بيت رسول الله حيث تسكن أم المؤمنين عائشة.

ها هو الحبيب المصطفى مع السيدة عائشة، عائشة الحبيبة بنت الحبيب، أنس القلب ودفء الروح وقرة العين ومهجة الفؤاد، ها هو بجوارها يتسامران ويتحدثان برفقة ضيوف، كانت عيناه تلمعان كلما التفت إليها شوقاً ولهفة وهياماً.

وبينما كان المشهد على هذا الحال وإذ بطارق يقف خلف الباب.. ولما فتح الباب تبين أنه الخادم وقد حمل طبقاً فيه طعام أرسلته إحدى زوجاته ﷺ. وما إن رأته عائشة حتى قامت بسرعة متوجهةً صوب الخادم وضربت بيدها الطبق، فوقع على الأرض وانفلق نصفين وتساقط الطعام على الأرض!

شهقتُ شهقة عظيمة من هول المفاجأة ولم أستطع أن أنطق بكلمة. لم أستوعب ما حدث.. سيد البشرية وإمام الأنبياء وخير الأزواج، بكل هيبته وعظمته يتعرض لهكذا موقف؟! بقيت واجماً أتأمل وجهه الشريف صلوات ربي وسلامه عليه، وأتساءل.. ما الذي يدور في باله؟ وكيف سوف يتصرف رداً على هذا الفعل الصادم الذي أقدمت عليه عائشة؟ بأي منطق تحركت يا ترى؟ هل كانت تدرك أنها أمام زوجها سيد المدينة وسيد البشرية وإمام المرسلين؟ وأين هيبته التي فرضها على المنطقة بأسرها وجاهه الذي وصل صيته إلى كسرى وهرقل والنجاشي؟

اقترب مني سيدي بلال قائلاً :

- لو كان أي رجل مكانه، كيف تراه سيتصرف برأيك؟

- حتماً سيلومها ويؤنبها على فعلتها، وقد يغضب ويصرخ ويطلب منها أن تعتذر منه ومن زوجته التي أرسلت الطعام، وربما ترك البيت وخرج عقاباً لها.

- صحيح.. وهذا أقل القليل في عرف الحياة الزوجية العادية.. أما خير البشر فانظر كيف سيتصرف.. هذا الرجل إنسان من

طراز خاص، ولا يمكن أن يسلم نفسه للمشاعر الطارئة الجياشة، ولا يمكن أن يسمح لنفسه بالوقوع أسيراً لردات الفعل العفوية، فتتحكم في فكره أو سلوكه، كانت قرارتهﷺ تستند دائماً إلى منظومة ضخمة من القيم العليا الرفيعة، والتي يديرها عقل جبار مسيطر، يتحكم بسلوكياته وقراراته.. انظر بنفسك الآن ماذا سيفعل؟

ها هو شيخ المدينة وسيدها، والرسول الأعظمﷺ. لم تبدُ على وجهه الكريم ملامح الغضب ولا العتب، ولم ينل الموقف من بشاشة وجهه ﷺ أو يعكِّر صفاء ابتسامته الوضيئة. ها هو يقوم ويجمع الطبق بيديه، ويجمع الطعام داخل الطبق بكل هدوء ورحابة صدر ويقول : (غارت أمكم، غارت أمكم). وها هو يطلب من الضيوف أن يأكلوا من الطعام وكأن شيئاً لم يحدث!

ثم عاود بلال حديثه مجدداً:

- أرأيت يا صديقي؟ (غارت أمكم) هذا هو التشخيص النبوي السليم للمشهد، وهذه هي الحكمة المحمدية في احتواء الموقف، نبينا القائل: (استوصوا بالنساء خيراً) والقائل: (خيركم خيركم

لأهله وأنا خيركم لأهلي). لقد كان عليه الصلاة والسلام يفهم الطبيعة الأنثوية أعمق الفهم، ويدرك أن من العبث الحوار مع المرأة بهذا الموضوع. إنه موضوع عاطفي لا علاقة له بلغة المنطق، والأنثى أنثى حتى لو كانت أم المؤمنين وابنة الصديق، فقرر أن يتصرف على النحو الذي رأيت، وصلت الرسالة إلى الحاضرين بأن الأمر لم يكن تقليلاً من هيبته أو من شأنه، إنما كان بدافع الغيرة وليس أكثر، وقام بجمع الطعام ببساطة، وطلب منهم أن يأكلوا وكأن أمراً لم يحدث!

- لم يأمر الخادم ولا زوجته بجمع الطعام، بل جمعه هو بنفسه.

- أجل.. تصرف في منتهى التواضع والحكمة، وفي هذا احتواء ذكي لغيرة أم المؤمنين عائشة. وقد سمعنا أنه أمر أن يرسل طبقاً آخر من بيت عائشة إلى زوجته التي أرسلت الطعام تعويضاً عن الطبق الذي انكسر، قائلا: (طعام بطعام وإناء بإناء).

- عليه أفضل الصلاة والسلام، لقد تصرف مستندا الى قيم الرحمة والعدالة في هذا المشهد..لم ينسه حبه لعائشة ورحمته بها أن يعدل..فطالبها بتعويض زوجته الأخرى بإناء آخر..

انتهى الموضوع بهذه السرعة.. لحظات فقط وعادت الحياة إلى طبيعتها، وخرج الجميع سعيداً راضياً والنفوس مطمئنة! أما العقول والقلوب فلها شأن آخر.. إن الأحداث تكشف عن حقيقة النفوس وطبيعة الأشخاص، ولئن عرفنا في هذا الإنسان صدق القول وحسن الأداء وعبقرية التخطيط طيلة مسيرته لتحقيق الرسالة، فلقد خرجنا اليوم بدروس وعبر لا حصر لها. هنا في بيته ومع زوجته وأمام الخادم!

كش ملك

حجارة الشطرنج بلونيها الأسود والأبيض تتنقل من مربع إلى آخر، والمعركة حامية الوطيس بين الفريقين. فتارة يسقط جندي، وتارة يسقط الفيل ويعقبه الفرس وتهدد القلعة. لم أكن أعلم مدى براعة سيدي بلال بهذه اللعبة وأنا أتأمل ملامح وجهه الوديع وهو غارق في التركيز وينقل حجارته بهدوء وصمت، حتى فاجأني وحرك الحصان إلى مربع قرب الملك. ثم نظر إليّ بابتسامة عريضة وقال: كش ملك! أصابني الإرتباك والذهول لهذه الخطوة المباغتة، وبعد محاولات مستميتة أدركت أنني وقعت في الفخ. ولم تجد كل المحاولات لإنقاذ الملك. انتهت اللعبة وانتصر بلال!

خيّم الصمت والهدوء لدقائق، قبل أن يبادر بلال بالحديث ويقول: الحياة مثل لعبة الشطرنج تماماً، ليس في الحياة المتسع من الوقت حتى تندب حظك وتلقي باللوم على خصومك أو تنتظر حتى يأتي الفرج على طبق من ذهب. دورك أن تفهم قواعد اللعبة وتحدد خطتك وهدفك النهائي، أما الأهداف المرحلية فسوف تتغير حسب مخرجات اللعبة بشرط ألا تحيد عن الهدف

النهائي.. مهم جداً أن تضع جنودك في المكان المناسب، وأن تكشف عقلية خصمك ونقاط ضعفه فتسبقه دوماً بخطوة. النصر حليف من يخطط ويعمل ويجتهد، ومن خرج عن قواعد اللعبة خسر مهما اجتهد في الصلاة والعبادة والدعاء.. هكذا خلق الله تعالى نواميس الكون وهكذا تسير الحياة!

- وهل تعتقد أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بتلك القواعد وهو النبي المختار؟

- بالطبع يا صديقي، وكيف يكون أسوة حسنة لنا إن لم يفعل؟ لقد تجلت عبقريته في إدارة الصراع مع قريش في كافة المراحل والأحداث الجسام التي مر بها، ولعل أهمها كان صلح الحديبية.

- أتقصد أن قريشاً وقعت في الفخ كما حصل معي أنا الآن؟ كل ما حدث كان ضمن تخطيط محكم وأداء عبقري تعجر عنه دهاة قريش؟!!

نظر إلي بلال وعينتاه تلمعان في الظلام، ثم أمسكني من يدي وقال: تعال معي يا صديقي وراقب ما الذي يجري.

ما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسي برفقة بلال واقفين عند خيمة وسط الصحراء، تتلفت حولك فيأخذك الخشوع والقشعريرة لجلال الموقف وهيبته. الليل قد أرخى سدوله على الصحراء المترامية الأطراف، والسماء تزينت بالمئات من النجوم والأجرام السماوية، والعشرات من فرسان المسلمين وكرام الصحابة يتجولون حول الخيمة. الجميع هنا في حالة توتر وترقب للأخبار التي سوف تصدر من قلب تلك الخيمة بعد قليل. وقف بلال عند باب الخيمة ونظر إليّ وقال: ادخل معي.. لا تخف يا صديقي.. تعال!

ولما دخلنا وأخذنا موقعنا داخل الخيمة، بدأ بلال يتمعن في وجوه الحاضرين التي بدت ضبابية الملامح تحت وطأة الظلام، وبدأ يشير إليهم ويقول: انظر يا صديقي.. انظر! هذا هو حبيبي ومعلمي ورسولي ﷺ وبالقرب منه علي بن أبي طالب وقد وكله رسول الله ﷺ أمر كتابة بنود المعاهدة، والرجل الذي يجلس قباله هو سهيل بن عمرو وهو المفوَّض من قبل قريش لعقد الصلح. ومن ترى هناك هم أصحابي وأحبابي أبو بكر الصديق، وعمر

بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبدالله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن سلمة رضي الله عنهم أجمعين.

والآن انظر إلى وجه نبيك ومعلمك ﷺ وهو يفاوض ويحاور ويدير النقاش. لم يكن الأمر سهلاً أبداً أمام هذا الرجل العظيم.. الأجواء مشحونة والنفوس متوقدة وطبول الحرب توشك أن تقرع إذا فشلت تلك المفاوضات، ولا يمكن أبداً أن نستهين بهذا الخصم العنيد.. هذا هو سهيل بن عمرو، سيد من سادات قريش وهو معروف بفصاحته وحسن بيانه وبعقله ودهائه، ولا أن تغفل حجم الضغوط الشديدة التي تهيمن على هذا المجلس من قبل من شهد هذا الموقف من كبار الصحابة، والذين لن تتقبل نفوسهم أي فكرة للتنازل أوالتهاون مع قريش. وهل من السهل جمع المسلمين وإقناعهم بالرجوع إلى المدينة من غير أن يؤدوا العمرة وقد خرجوا بملابس الإحرام وساقوا الهدي لنحره؟ جميع تلك المعطيات وغيرها كثير كانت حاضرة في ذهن هذا الرجل العظيم وهو يراقب المشهد ويزن الأمور.

أرأيت؟ مثل لعبة الشطرنج تماماً.. فليحصل غريمك على ما يريد، ولتخسر- ظاهرياً على الأقل- أمام خصمك. ولكن الأهم من ذلك هو أن تحدد ما هو هدفك النهائي وتحرك حجرك وتقول: كش ملك! هنا تكمن العبقرية والكياسة والفطنة. لن تغدو الأمور في شبه الجزيرة العربية كما كانت قبل تلك المعاهدة التاريخية، فسوف تشهد الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وسوف تفتح المدينة أبوابها لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وصفوان بن أمية وقد أعلنوا إسلامهم وأخذوا دورهم فاتحين وناشرين لدين الله في كل بقاع الأرض، وسوف تأتي وفود العشائر والقبائل من كافة أنحاء الجزيرة العربية تدين لنبي الرحمة بالولاء والطاعة، وسوف نشهد فتح خيبر ومعركة مؤتة، وما هي إلا أعوام قليلة وترى زهاء عشرة آلاف مقاتل من جيش المسلمين يحاصرون مكة بعد أن غدرت بهم قريش ويدخلونها بلا قتال.

وفي هذا اليوم تحديداً، يوم فتح مكة.. سوف يدخل سهيل بن عمرو نفسه في الإسلام، وتتحدث كتب السيرة عن ورعه وتقواه بعد إسلامه، بل هو الذي سيقف خطيباً في قريش بعد وفاة

الرسول الكريم ﷺ ليهدّىء نفوس الناس بعد أن كادت تفلت الأمور وترتدَّ قريش عن الدين وهم حديثوا عهد بالإسلام.

- شيء غريب حقاً وأقرب إلى الخيال. من كان ليتصور كل تلك الأحداث العظيمة والتي لم تكن لتحصل لولا صلح الحديبية؟

ولا غرو أن يتنزل القرآن مبشراً للمؤمنين ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح:1).

وأي فتح أكبر من هذا الفتح؟ صدق الله العظيم وبلغ رسوله الأمين.

- ولك الآن أن تتابع يا صديقي تفاصيل هذه المعاهدة التاريخية.

ها هو رسول الله يتصدر المشهد ويأمر سيدنا علياً بكتابة بنود المعاهدة على أن يبدأ بكلمة: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهنا اعترض سهيل بن عمرو قائلاً: لا أعرف الرحمن، اكتب (باسمك اللهم)، فضجَّ الصحابة على هذا الاعتراض، قائلين: هو الرحمن، ولا نكتب إلا الرحمن، ولكنَّ النبي ﷺ تماشيًا مع سياسة الحكمة والمرونة والحِلم، قال لعلي: (اكتب باسمك اللهم)، واستمر في إملاء صيغة المعاهدة هذه. فأمر علياً أن يكتب (هذا ما اصطلح

عليه رسول الله)، وقبل أن يكمل الجملة اعترض سهيل بن عمرو على كلمة رسول الله قائلا: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتبعتك. أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟ اكتب اسمك واسم أبيك.

واعترض المسلمون على ذلك، ولكن رسول الله بحكمته وتسامحه وبُعد نظره حسم الخلاف وأمر الكاتب بأن يحذف كلمة رسول الله من الوثيقة فالتزم الصحابة الصمت والهدوء.

وتم عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

- باسمك اللهم.
- هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.
- واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكفُّ بعضهم عن بعض.
- على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجًّا أو معتمرًا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

- على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.
- وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه (فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتاثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم).
- وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.
- وعلى أن هذا الهدي ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا.
- أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين.

تم توقيع المعاهدة من قبل الطرفين، ورفعت الأقلام وجفت الصحف، وقضي الأمر وانفضَّ المجلس. ها هو سهيل بن عمرو يغادر الخيمة في زهو وخيلاء وهو يطالع وجوه الصحابة

ونظراته لا تخلو من الشماتة. أما الصحابة الذين شهدوا المجلس فقد تسمروا في أماكنهم وأطرقوا برؤوسهم وانعقدت ألسنتهم. لا يخفى عليك يا صديقي ما الذي يشعرون به الآن من مرارة وأسى، ولا يمكن أن تتخيل كيف كانت قلوبهم تتوقد حسرة وحزناً، ولولا هيبة المصطفى عليه الصلاة والسلام وحضوره لكان لهم شأن آخر. وَحدَه عمر الذي لم يتحمل هذا الموقف وهو كما عهدناه صاحب اللهجة الصادقة وهو الفاروق، ولو سكت لما كان عمر، لقد خرق جدار الصمت وتكلم وأفصح عما يدور في صدور عامة المسلمين، بعد أن انتشر الخبر بين صفوف الصحابة.

تعال يا صديقي.. أنظر ها هو عمر.. ذلك الرجل الأسمر الطويل يدرك رسول الله وعيناه تغليان من الأسى.

لم يعد يظهر في المشهد أمامي سوى لقاء الرجلين.. رسول الله وعمر. ها هو عمر رضي الله عنه يقف ويبتلع ريقه وهو في حضرة الرسول الأعظم. موقف ليس بالسهل أبداً عليه بالتأكيد، فسيدنا عمر لم يكن من البشر الذين يضمرون غيظهم أو يكتمون

مشاعر الضيق التي تتأجج في صدورهم.... هذا هو عمر وما أدراكم ما عمر!

إلا أن غيظ عمر وغضبَه وعدم رضاه عما أسفرت عنه الإتفاقية ما كان في حال من الأحوال سيدفعه ليتجاوز حدود اللباقة والكياسة وهو في مقام رسول الله.

ربما كان قد تردد مراراً وراجع نفسه قبل أن يتجرأ ويفرغ ما في صدره، لكنه في الختام قرر أن يتكلم.. هذا هو عمر الذي عرفنا!

بدأ عمر بالحديث بعد طول تردد قائلاً لرسول الله ﷺ: ألستَ نبيَّ الله؟ فأجاب: بلى. قال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال ﷺ: بلى. قال: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري.

كنت أراقب هذا المشهد المهيب وأدور بنظري في وجوه الصحابة الذين خيَّم عليهم الصمت والوجوم. كنت أقف واجماً مثلهم.. حقا أنا لا أستطيع استيعاب ما حدث.. فما كان مني إلا أن أمطرت سيدي بلال بالكثير من الأسئلة:

سيدي بلال.. إذا كان ما حصل كما تقول (كش ملك) فكيف تفسر مجريات الموقف؟ وهل كان ما حصل عبقرية وبعد نظر اختص بها خاتم الأنبياء أم هي وحي من السماء؟ وحبذا لو حدثتني عن مشاعرك في تلك اللحظة، هل أدركت المغزى والرؤية من تلك المعاهدة؟

كان بلال ينظر إلى الحبيب المصطفى وهو جالس في مكانه. وحده بين الحاضرين الذي لم يبدُ عليه أي انفعال أو اضطراب، كانت عيناه تلمعان في الظلام وقد كست وجهه هيبة وبهاء تأسر الناظرين فيقفون في حضرته إجلالاً وتوقيراً.

طوّق بلال كتفي بذراعيه القويتين ومضى يمشي معي ويتحدث.. قال: إسمع.. صدقني. لقد شهدت بنفسي هذا الموقف، ومع إيماني العميق وثقتي الكبيرة بالحبيب المصطفىﷺ، فلم أستطع أن أتخيل معنى النصر الذي نزل به القرآن حينها، ولم يخطر ببالي ما سوف تتكشف عنه الأمور من خير كبير للإسلام والمسلمين. لم يكن في وسعي إلا السمع والطاعة والإذعان لأمر الله ونبيه. أعود وأقول: كانت في مسيرة هذا النبي العظيم قرارات

نزلت قطعاً بوحي من السماء، ومواقف أخرى اجتهد هو فيها عليه الصلاة والسلام، فيأتي الوحي إما مؤيداً أو معاتباً ومصححاً، أما في معظم الأحوال فكانت حالة انسجام بين وحي السماء وطبيعة شخصية وفكر وسلوك هذا الإنسان العظيم ﷺ. قد لا أستطيع الجزم عن أي الحالات نتحدث في هذا الموقف تحديداً، لكن علينا أن نعلم أن نبينا لم يكن مجرد آلة تتلقى الأوامر وتنفذها، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نغفل أو نتجاهل تركيبة شخصيته وعبقرية فكره وبعد نظره في أدق التفاصيل وأحرج اللحظات.

لنعد الآن إلى موضوعنا (كش ملك)، وما سوف أقوله لا يعدو أن يكون تحليلاً أو اجتهاداً مني وهو يحتمل الخطأ والصواب. لقد حرك الرسول الكريم حجارة الشطرنج بطريقة فذَّة حيَّرت عقول قريش وأفقدتها صوابها، حركة (كش ملك) جاءت بعد سنوات عندما عاد وحاصر مكة بعد أن غدرت بالعهد وعادت مكة إلى أيدي المسلمين وبشكل سلميٍّ، والذي حصل اليوم هو الحصول

على الهدف المرحلي وكان لا بد من الوصول إليه مهما كلف الأمر.

– وما هو الهدف المرحلي؟

– إنه عقد الصلح. الهدنة! الهدنة هي التي فتحت الباب على مصراعيه لكلِّ ما حدثتك به من نجاحات وإنجازات. لم يخطرْ ببال قريش هذا الأمر، وقد ظنت أن أداء العمرة هي كل ما يبحث عنه هذا الإنسان العظيم، فابتلعت الطعم ووقعت في الفخ. حتى نحن الصحابة لم نفهم هذا الكلام في حينها. نقطة ضعف قريش يدركها الرسول العظيم ﷺ جيداً.. إنها مكانة قريش وهيبتها بين العرب، وما أفقدها صوابها أنها إن منعت الرسول من دخول مكة فقدت مصداقيتها بين العرب. فكيف تصدّ رجلاً مسالماً جاء ليزور بيت الله؟ وإن سمحت له أصابت كرامتها في مقتل أمام العرب.. فقد اعترفت بالدين الجديد وفرض محمد نفسه عليهم وكسب الجولة، هذه نقطة الضعف وقد تمَّ التركيز عليها بكلِّ قوة! فكانت النتيجة هي المعاهدة، وقد بدت وكأنها نتيجة طبيعية لتسلسل الأحداث، وما أراها إلا الهدف الأساسي الذي خرج من

أجله هذا القائد المحنَّك، وهو يدرك جيداً طبيعة قريش ويتوقَّع ردة فعلها!

سرعان ما أخذني الحماس وبدأت عيناي تلمعان في الظلام، وابتسمت وأنا أقول: (كش ملك)! ثم عاودت السؤال مجدداً.. ولكن يبقى التحدي الخطير هنا.. كيف كانت ردة فعلكم أنتم الصحابة؟ وكيف تمكن هذا النبي العظيم والقائد المحنك من احتواء تلك النفوس الثائرة والمضطربة؟ لا أظن أن الموضوع هيِّن ويسير كما أرى بأمِّ عيني.

فأجاب بحماس وانفعال بالغين: بالضبط يا صديقي.. وهنا تبرز سمة القائد الملهم والذي يأخذ بأيدي جنوده وأنصاره بكل رفق ورقة ويمسح على قلوبهم، بالفعل وليس بالقول أو الأوامر. ولك أن تتخيَّل من ألهمه حسن التصرف في هذه اللحظة؟ إنها امرأة، نعم المرأة التي أعلى الرسول الكريم ﷺ مكانتها واحترم رأيها في وقت كان فيه العرب يزدرونها ويستخفون بمكانتها، تعال معي يا صديقي وانظر.

اقتربنا معاً من مكان وجود الرسول الأعظم، وإذا به يدعو المسلمين ويطلب منهم أن يحلقوا رؤوسهم ويذبحوا الهدي تحللاً

من الإحرام فلم يفعلوا، فكررها ثلاث مرات، إلا أنه لم يقم أحد منهم.

عقب سيدي بلال قائلاً: نعم.. لم يقم منا أحد! الموضوع جد خطير وينذر بعواقب وخيمة، فلأول مرة يخالف المسلمون الرسول الكريم ويردون طلبه! ما كان الأمر منا عصياناً ولا تمرداً والعياذ بالله، وإنما انشلّ التفكير وحارت العقول من الصدمة ولم نعد نعي ما نفعل.

- وكيف تصرف النبي ﷺ إزاء إحجامكم عن التحلل من الإحرام، وعدم انصياعكم لطلبه؟

- لقد بدا مهموماً، مثقلاً، متعباً إلى أبعد حد.. كان يرى ما لا نراه.. والموقف كان أصعب من أن يشرح لنا الفتح الذي سيترتب عليه.. ربما أننا لم نكن في حال يسمح لنا بالاستيعاب أو اليقين بأن الخير كلَّ الخير فيما حدث.. فما كان منه ﷺ إلا أن دخل خيمته عند زوجته أم سلمة رضي الله عنها مهموماً قائلاً: (هلك المسلمون). وأخبرها ما حدث، وكأن الله تعالى ألهمه الصواب على لسان زوجته الحكيمة حيث ردت قائلة: يا نبيَّ الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو

حالقك فيحلقك.. فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحداً منا حتى فعل ذلك. نحر بيده ودعا حالقه فحلقه.. فلما رأينا ذلك قمنا فنحرنا وجعل بعضنا يحلق لبعض.

انتهى الأمر ووئدت الفتنة وهدأت النفوس وها هو رسول الله يعود أدراجه نحو المدينة المنورة ومن حوله الرجال العظماء والأبطال الكبار، وهو يتقدمهم ويردد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ . (الفتح:1)

يوم الفتح

لم تشهد الكعبة المشرفة يوماً مثل هذا اليوم بكل عظمته وهيبته وجلاله، ولم يخطر ببال إنسان أن يبلغ قمة المجد والتمكين مثلما حقق هذا النبي الإنسان في هذا اليوم. ساحة الكعبة المشرفة تغصُّ بالآلاف من الناس، في ترقب وصمت بانتظار اللحظة الحاسمة. ها هم قادة الألوية الذين دخلوا مكة من جميع مداخلها: خالد بن الوليد والزبير بن العوام وأبو عبيدة بن الجراح وقيس بن سعد بن عبادة. ومن خلفهم عشرة آلاف مقاتل شاهري سيوفهم، صبغوا الأفق عزة ونصراً، وزلزلوا الأرجاء تكبيراً وتهليلاً.. صوت صهيل الخيول وزمجرة الفرسان تصدح في الآفاق! وها هم أهل مكة يتهامسون في حالة عجيبة من الهلع والاضطراب، وأحدهم ينادي ويقول: (من دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن).

وأبو سفيان يسعى بين الناس ويبوح لهم بما رأت عيناه من جيوش لا قبل لهم بها ويقنعهم بالعدول عن المقاومة أو القتال.

لقد قضي الأمر. نعم.. لقد صارت مكة بيد الرسول الكريم، وأدرك الجميع أن مصيرهم بات معلقاً بإشارة من يتيم بني هاشم! هو الآن داخل الكعبة يهدم الأصنام ويردد: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾(الإسراء: 81).

ها هو الباب يفتح. الكلُّ يحبس أنفاسه بانتظار تلك اللحظة الحاسمة!

وقف نبي الرحمة ونظر إلى قريش وهم على هذه الحال من الذل والهوان. لا أرى في قسمات وجهك الشريف يا رسول الله أي معالم للزهو والشماتة والتشفي، ولا أرى إلا معالم الرحمة والتواضع والطمأنينة.

سيد البشرية وخاتم النبيين يعتلي المكان والمشهد معاً.. يقف يتفحَّص المشهد برمَّته.. يقلب ناظريه في الأرجاء، ويستحضر الكثير الكثير من الذكريات.. إنها مكة! أحبُّ البقاع إلى قلبه! مكة التي عاش فيه أحلى ذكريات طفولته وريعان شبابه.. مكة التي أُخرج منها رغم حبِّه وتعلقه بها.. مكة التي شهدت انبلاج

فجر الدعوة الأول وشهدت آلام من ناصروا الدعوة وارتوت من دمائهم.

ها هو يطالع الوجوه الكالحة التي تحدِّق فيه متوجسةً.. وشريط طويل من الأسى يعبر ذاكرته.. هؤلاء من عذبوا وأهانوا وشتموا وظلموا وتطاولوا.. هاهم يقفون منكسي الرؤوس بانتظار جزائهم العادل.

وكعادته عليه الصلاة والسلام، لم يدم الأمر طويلاً وكسر حاجز الصمت وخاطب أهل مكة: ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء!

هكذا بكل سرعة وإيجاز وبساطة.. هكذا دون أن يعيّرهم بما فعلوا.. أو يعاتبهم على سوء ما صنعوا أو يقتصَّ منهم جزاء ما أسلفوا.. إذن في فتح مكة لا تصفية للحسابات.. عفو وصفح وأمان.. كم أتعبتنا من بعدك يا نبيَّ الرحمة!

بكل السماحة التي قد يحملها قلب.. وبكل التواضع الذي قد يستوعبه كيان.. وبكل الرأفة التي قد تجود بها روح.. وبكل البساطة التي قد يكتنزها عقل.. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء!

عمَّت الدهشة والفرحة بين الجماهير الغفيرة التي تجمعت في هذا المكان، بينما ظلَّ ذلك القائد المظفَّر يطالع تلك الجموع، ولن أستغرب إن قيل لي إن مشاعر الغبطة والطمأنينة التي تملأ قلبه الآن أضعاف تلك المشاعر التي حصلت بفتح مكة. لأنه رجل تعوّد أن ينتصر للفكرة ويتجرد من حظ الذات، رجل يؤمن بالرسالة وليس سداد الحسابات، رجل أرسله الله داعياً ومبشراً ونذيراً، وإلا لما قبل إسلام أبي سفيان والذي نطق بالشهادة قبيل الفتح تحت رهبة السيف. لا بل وأكرمه وهو عدوه اللدود فنادى المنادي: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن).

أبو سفيان.. عدّوه اللّدود ومسيّر جيوش الكفر لقتال المسلمين يدور بين الناس مذهولاً... فمن دخل بيته فهو آمن! إيييه يا محمد.. يا خبيراً بمداخل النفوس ويا عليما بمفاتيح القلوب! (ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!).. هذا ما قاله أبو سفيان!

يسلم أبو سفيان بعد فتح مكة.. يسلم بعد أن رفع النبي الكريم مكانته بين أهله وناسه... يسلم إسلام عزيز لا ذليل.. إسلام راغب لا راهب.. والمدخل كان لهذا كله " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن"!

لم تعهد العرب تصرفاً على هذا النوع. جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل بانتظار إشارة واحدة فتستباح الدماء وتنتهك الحرمات، وتشفى الصدور ممن ظلموهم وآذوهم وأخرجوهم من ديارهم. هكذا وبكل هذه البساطة؟ بلا شروط ولا إملاءات ولا محاكمات؟ كيف يارسول الله؟ كيف وصلت إلى هذه الحالة العجيبة من نكران الذات والتسامح وصفاء الوجدان؟ وهب أنك نبي مرسل، كيف سيطرت على مشاعر عمر وصهيب وبلال وعمار؟ كيف أوقفت هذا السيل الجارف من الجند الذي لا يمكن لقوة على وجه الأرض أن تحتويه وتمنع الطوفان؟ من علّم هذه القلوب أن تقف كالأسود مزمجرةً يوم العزة والمواجهة والقتال، ثم تعود وتلين وتسكن كنسيم الليل يوم التمكين ويوم الفصال؟ هؤلاء الذين تراهم هم أولئك الأبطال الذين سطروا أروع آيات البطولة والشجاعة

والإقدام يوم بدر وأحد وخيبر، وخاضوا ساحات الوغي في مؤتة وحاربوا الرومان. خالد وسعد وأبو عبيدة والزبير هنا وغداً سوف تفرّ منهم فلول كسرى وهرقل وتدك خيولهم بلاد الفرس ومصر والشام. هم أنفسهم قلوبهم اليوم تقطر رحمة ورأفة ورقة، والعين تدمع خشوعاً وإجلالاً، واليد تقبض على مقبض السيف فيعود إلى الغمد، وليخلع ثوب الحرب وليترجل الفرسان عن خيولهم فيعمَّ الخير والسلام في أرجاء مكة. فاليوم ليس يوم الملحمة، بل هو يوم المرحمة كما ردد شيخ مكة وكبيرها محمد ﷺ.

كان بلال يراقب المشهد ويردد ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الاسراء:81). ثم نظر إليّ وقال: لقد دخل مكة خافض الرأس، حتى كادت شعرات لحيته الشريفة تمس فرسه، كان كل ما فيه يوحي بالخضوع والتذلل للجواد الكريم الذي ما منعنا إلا ليعطينا، وما حرمنا إلا ليجود علينا، لقد ضرب لنا أنموذجاً أعلى في التجرد للفكرة وفي التواضع والعفو، كان

يتلو سورة النصر، وكل ما فيه يدين بالعرفان والشكر لله على هذا العطاء السخي.

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ (النصر:1-3).

- الحمد لله الذي تتم بحمده الصالحات، لكن هل تأذن لي بسؤال يا سيدي؟

- طبعاً.. تفضل!

- لطالما حيرتني آيات سورة النصر.. ما الحكمة من أن يطلب الله من نبينا أن يستغفر في ذلك المشهد الذي يتجلى فيه النصر والتمكين؟ كنت دوماً أتساءل لماذا تأمره الآيات بالاستغفار والتسبيح يوم قطف الثمار بدلاً من أن تزفَّ إليه التهاني وتبشِّره بالقَبول والتمكين والأجر العظيم الذي ينتظره جزاء ما قدّم؟

- سؤال ذكي يا صديقي! ولكن قبل أن أجيب عن سؤالك، أريد أن أسألك أولاً.. هل تعلم أن سورة النصر هي آخر سور القرآن نزولاً؟

- نعم، وقد أسماها البعض بسورة التوديع لأنها تحمل في ثناياها نعي الحبيب المصطفي ودنو أجله.

- عظيم.. وما أول سور القرآن نزولاً؟

- سورة العلق وتبدأ بقوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ ﴾ (العلق: 1).

- ماذا تلاحظ في المفردات التي حفلت بها سورة العلق؟

- مفردات عظيمة وجليلة.. اقرأ.. الأكرم..علم الإنسان.. القلم..كلا لا تطعه واسجد واقترب.

- عظيم جداً.. ولعلك لاحظت ما تحمله من معانٍ عظيمة تناسب المقام في بداية الدعوة. ففيها العلم وفيها معاني التحدي والصمود، وفيها السجود والاقتراب من المولي جل شأنه. مفردات ومعانٍ تدعو للعلم والحركة والعزم والتحدي والعزة والكرامة. في

هذه المرحلة الصعبة والشاقة كانت تلك المعاني حاضرة في ذهن الرسول الأعظم وهي التي كانت تحدد وجهته وتمهد مساره.

- جميل جداً.. وماذا عن سورة النصر؟

- سورة النصر بالمقابل جاءت في هذا اليوم العظيم.. يوم النصر والتمكين.. فكان الخطاب مختلفاً تماماً، وجاءت السورة الكريمة بمثابة تربية للنفوس وتطهير للقلوب.

جاءت تخاطب هذا الرجل العظيم، وتقول له.. لا تغرنك بهجة الانتصار وقد بلغت ذروة المجد، فيأخذك الزهو والخيلاء والتعالي.. حق عليك اليوم يا محمد أن تخفض جناحك وتتواضع. حق عليك أن ترجع الفضل لله وحده سبحانه. حق عليك أن تستغفر وتسبح المولى، فلولا ستر الله عليك ويمنه وتوفيقه لما بلغت ما بلغت!

- لم يخطر ببالي هذا التحليل... أبداً! ليتنا نفقه هذه الفلسفة العظيمة. ما أجمل أن يقف الحاكم يوم ينتصر، ورئيس الشركة عندما ينجز والطالب عندما ينجح ويفهم تلك الرسالة، وبدلاً من اللجوء إلى حالة الاستعراض والهتاف والطرب للتعبير عن

مشاعر النجاح، يقف ذلاً وخضوعاً لله سبحانه، ويردد (اللهم لا تكلني إلى نفسي فأعجز ولا إلى الناس فأضيع).

كم عظيم أنت يا رسول..!!

عظيم أنت وقد ذقت اليتم والحرمان وقلبك باللطف يجود.

عظيم أنت في شبابك وعرفت صادقاً أميناً ولم تخن العهود.

عظيم أنت مع أزواجك ومع أبنائك كنت لهم الأب الرؤوم.

عظيم أنت مع خصومك.. رافع الرأس في عزة لا تعرف الخنوع.

عظيم أنت يوم النصر والرايات خفاقة، فتسمو وتتسامح وتتقرب الى خصومك وهمك جنة الخلود.

عظيم أنت اليوم عندما تمسح على قلب أصحابك، ففيك اللطف والرقة والقلب الحنون.

أنا بلال

تغيّر المشهد تماماً وصَمت العالم كله ليشاهد تلك اللحظات التاريخية والمشاهد الأسطورية. حلّق الحمام بعيداً على شكل أسراب متناغمة حول ساحات الحرم وبدت السماء الزرقاء هادئة وديعة ولكأنما تمد أياديها لتصافح أرجاء المعمورة. اختلط الناس في أروقة مكة فلم تعد تميز بين الجند وبين أهل مكة. لا شيء يفرق بين الناس، لا عرق ولا لون ولا حسب ولا نسب ولا دين. ما زالت بقايا الأصنام وحطامها متفرقة يدوسها الناس بأقدامهم. الجماهير الغفيرة في حالة تدافع عجيب ولكل منهم وجهة، إلا أن وجوههم تنطق بالطمأنينة والراحة والغبطة. وسط هذا الهرج والمرج فقدت بلالاً!

بلال رفيقي ومعلمي اختفي فجأة وغاب عن ناظري. شعرت بالاضطراب والقلق، تماماً مثل الطفل الذي فقد أباه.. لم أعد أدري ما أفعل وبقيت في مكاني مشتت الفكر حائر الوجدان.

وفجأة، صحوت من غفلتي على منظر عجيب يهز الأركان. شاهدت رجلاً أسمر اللون يتسلق الكعبة، ويتشبث بحبالها،

وشهقت من هول المفاجأة.. يا إلهي!! هذا هو بلال. بلال يتعلق بأستار الكعبة بخفة ورشاقة ويستمر في الصعود تحت ذهول تلك الجموع التي تحيط بالبيت العتيق. ها قد علا فوق الكعبة المشرفة. بلال الآن فوق الجميع. بلال ينظر إلى وجوه الناس ويقرأ تعابير وجوههم، فمنهم من يطالعه بعيون ملؤها الحب والإعجاب والإكبار. هذا هو سلمان وصهيب والزبير وعبادة، أصحابه وخلاّنه ورفاق الدرب. ومنهم من يراقبه بنظرات تشي عن غيظ وغل وازدراء لذلك (العبد الأسود) والذي تجرأ أن يعلو البيت العتيق ويحتل هذا المكان وحده وينظر إلينا بعيون كلها تحدٍ وعزم وتصميم! وقف بلال في مكانه وبدأ يجول بنظره في أرجاء الحرم، ويمتع نظره بهذا المشهد الخالد بكل ما فيه من تفاصيل وذكريات، تحكي قصصاً في البطولة والتفاني والإقدام. هنا دار الندوة وهناك منزل الهالك أمية بن خلف، وهنا دار الأرقم وذاك هو منزل الحبيب. ثم وضع راحة يده فوق جبينه ونظر إلى بعيد وقد علت وجهه ابتسامة واسعة نضرة.. نعم هذا هو غار حراء، من هناك ابتدأت الحكاية وإلى هنا وصلنا!! لايوجد في

قواميس اللغة ولا دواوين الشعر ولا إبداعات الأدباء والكتاب ما يمكن أن يصف تلك المشاعر التي كانت تغمر قلب بلال ولا الغوص في أفكاره وخواطره وهو في هذا المكان. إلا أن الواضح أن الرجل كان يحلق. كان غارقاً في بحر من الغبطة والطمأنينة والحماس! ولولا أن وراءه مهمة عظيمة لربما قضى باقي النهار وهو على هذا الحال!

وفجأة.. عمَّ الصمت والترقب والهدوء ساحات الحرم، والعيون مصوبة باتجاه بلال. بلال الآن يتصدر المشهد! وما هي إلا لحظات حتى شق بلال حاجز الصمت وبدأ بصوته الندي يرفع الأذان!! بدأت الدموع تنهمر والأجسام ترتجف في خشوع وإجلال والألسنة تسبح وتلهج بحمد العليّ المنان.

سرت القشعريرة في جسدي وشعرت بقلبي يخفق بشدة والدموع تنهمر بغزارة وأنا أستمع لهذا النداء الإلهي الخالد من حنجرة بلال. لم أعد أعي ما حولي وانفصلت تماماً عن الوجود ولكأنما روحي تحلق مع سرب الحمام وتداعب الغيوم وتسمو في الفضاء. بدا لي طيف بلال بملامحه الطفولية وبنيته القوية ووجهه الأسمر

الوديع وابتسامته العذبة. بدا لي يتسع ويملأ الوجود من حولي ونظر إليّ من جديد بنظرات ملؤها الحب والحنان والعزم والقوة والحماس. ومضى يقول:

أنا بلال.. أنا رمز البطولة والثورة على الظلم والطغيان..

أنا أيقونة التحدي والعزم والبناء والعنفوان..

أنا الحبل الموصول بين السماء والأرض، بين الرحمن في عليائه وبين بني الإنسان..

أقف اليوم في أقدس مكان وصوتي الندي يشق عباب السماء ويزمجر كالرعد ويهز أعالي الجبال..

نغمات صوتي تتدفق وتتناغم مع إيقاع الفؤوس وهي تحطم الأصنام..

ولسوف يتردد صوتي وتتناقله الأخبار فيصل إلى أقاصي الأرض ويجتاز البحار، ويعلو الجبال والكهوف والبراري ويروي الوديان..

لسوف يغمر المعمورة ويعم الدنيا ويلبي الإنسان.. من كل عرق ولون أو وطن أو عنوان..

رسالة خالدة أحملها وأبلغها للإنس والجان..

رسالة منسجمة مع سيرتي وقصتي وانا تلميذ لهذا الإنسان..

وقد شاهدت بأم عيني كيف عادت مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وهو ما زال على الكفر وعبادة الأوثان. (لا يأخذها منكم إلا ظالم) هذا ما قاله معلمي المصطفى العدنان..

والراية نزعت من عبادة يوم قال (اليوم يوم الملحمة) ورد نبي الرحمة (اليوم يوم المرحمة). مواقف وقصص تتناغم مع صوت الأذان ومع دوي تحطيم الأصنام..

الله أكبر أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.

فليعلم العالم أجمع.. الله أكبر.. الله أكبر لا إله إلا الله.

فليعلم العالم أجمع..لا حصر لدين الله بعد اليوم ولا تضييق ولا عدوان..

لا للظلم لا للطغيان ولا الغطرسة ولا التكبر والتفرقة بين بني الإنسان..

لا للخوف ولا الجزع ولا الهوان.. فبعد الله أكبر لم يعد في القلب خوف من إنسان ولا ظالم ولا طغيان..

لا إله يُعبد غير الخالق وما سوى ذلك محرَّم من الأوثان.. أوثان الحجر وأوثان الهوى والمال والجاه والزعامة والتجبر كلها محرمة في دين الرحمن..

لا للجهل ولا الخرافة ولا الضلال.. فالقرآن بدأ بـ (اقرأ) واحترم العلم وعقل الإنسان..

لا لتقديس الأشخاص ولا تمييز بين الناس. فسيد هذا المكان ذلك الشيخ بين الناس.. عبد الله ورسوله لم يعتمر تاجاً ولم يحمل صولجان..

أنا بلال.. يكفيني فخراً أنني رفيق وتلميذ في مدرسة هذا الإنسان، وهو الذي كرمني وشرفني برفع الأذان..

سوف تبقى قصتي تلهم الإنسان وترشد كلَّ رافض للظلم والطغيان، ولسوف تتناقل الأجيال أنباء الصمود والبطولة وأخبار الفرسان..

سوف تمر الأزمان وتسمع عن حضارات وأمم وبلدان.. كلها سمعت بقصتي وفهمت كيف تصان كرامة الإنسان.. وتقول: لا للعنف لا للعبودية لا للعدوان..

سوف تستذكر وجهي الوديع في هذا اليوم وتقول: لا للعلو ولا لشهوة الانتقام ولا للغل مكان..

سوف يكون للظلم جولات نعم، وكلنا في النهاية إنسان.. ولكن ثقافة هذا الدين سوف تظل محفورة في الضمير والوجدان.. ومدرسة محمدﷺ سوف تبقى شاهدة في كل البلدان وعلى مر الأزمان.

أنا بلال.. أنا للحرية رمز وعنوان!

حالة امتنان

لم أرَ معالم البشر والسرور على بلال كما رأيتها هذا اليوم. كان يمتطي صهوة جواده الأورق وعلى وجهه الوديع ترتسم ابتسامة طفولية جميلة. كان يصول ويجول وهو غارق في النشوة والحماس، وأنا أتبعه على حصاني مجتهداً للّحاق به والتقاط درر ما يفيض به عليّ من عبر ودلالات.

لقد سرنا طويلا حتى وصلنا إلى ساحة معركة غير متناهية الأطراف لقد وضعت الحرب أوزارها وتحقق النصر المبين!

نحن اليوم نتابع ما حصل بعد تلك الملحمة التاريخية الخالدة والتي سطرها أبطال المسلمين وجنود الإيمان والتوحيد. في هذا اليوم حقق المسلمون نصراً تاريخياً مؤزراً على هوازن وثقيف في غزوة حنين، بجيش قوامه اثنا عشرة ألفاً من الصحابة الأبطال مقابل ثلاثين ألفاً من المشركين، وذلك في شوال السنة الثامنة للهجرة، مؤذنا ببسط سيطرة الإسلام على شبه الجزيرة العربية.

بعد حنين، انتهى الأمر ولم يعد أمام المسلمين أي مقاومة تذكر. لقد كانت موقعة فاصلة ومهمة في تاريخ الإسلام.. ولعل من أهم ما يميز موقعة حنين مشاركة من دخل في الإسلام حديثاً من قريش إلى جانب المهاجرين والأنصار. لقد كان النصر فيها عسيراً وصعب المنال، وفي هذا المقام نزل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (التوبة: 25-26)

وقد أسفرت المعركة عن غنائم عظيمة، قام الرسول الكريم ﷺ بتوزيعها على المسلمين بكافة أطيافهم.. إلا أنه خصّ المؤلفة قلوبهم – وهم الذين دخلوا الإسلام حديثاً– بنصيب كبير منها.

بعد أن راقبنا مشهد النصر البهيج وشهدنا النهاية الحاسمة للصراع الدامي الذي خاضه المسلمون دفاعاً عن راية التوحيد، أمسك بلال بلجام فرسه وسار صوب ساحة المعركة ممعناً النظر في الوجوه أمامه. كان غبار المعركة المتصاعد يسدُّ الأفق، والآلاف من الجنود والفرسان وحاملي الرايات الخفاقة ينتثرون في الساحات مكبرين ومهللين. الكثير من الجثث المتناثرة هنا وهناك من قبل الطرفين، والدماء التي روت أرض المعركة تكسو الأرض خضاباً مقدساً، نعم.. لقد كان المشهد جليلاً.. يحكي حكايات البطولة والعزة والشجاعة والإقدام!

أشار بلال بأصبعه إلى مكان بعيد وهو يقول: تعال ياصديقي.. انظر! هذا هو أبوسفيان بن حرب، وهذا ابنه معاوية، وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام، والنضير بن الحارث والعلاء بن حارثة الثقفي وجبير بن مطعم. كل واحد منهم أعطاه رسول اللهﷺ مئة بعير. فقد كانوا حديثي عهد بالإسلام وأراد رسول الله ﷺ أن يؤلف قلوبهم ويكسب ولاءهم للإسلام. في حين حصل المهاجرون والأنصار على بعير أو بعيرين على الأكثر.

وقبل أن يسمع ما يجول في بالي، نظر بلال إليّ وقال: اتبعني. انطلق الجوادان بسرعة نحو ساحة تجمع بها عدد غفير من الناس. وهذا هو أكرم الخلق عليه الصلاة والسلام وقد وقف بهم خطيباً.

لقد جاءت الأخبار إلى رسول الله ﷺ أن الأنصار وجدوا في أنفسهم أمراً تجاه الطريقة التي وزع بها الغنائم، وعزَّعليهم أن ينال حديثو العهد بالإسلام كلَّ تلك المغانم في حين لم يعطهم إلا النزر اليسير، وهم الذين آووه ونصروه وحاربوا معه.

بدأت أقترب أكثر وأكثر من الموقع وأراقب المشهد. أعين الأنصار لا تخفي العتب الرقيق والحزن العميق في حضرة الرسول الأعظم ﷺ، وقد عقد الحياء لسانهم فآثروا الصمت. وهذا هو نبي الرحمة يطالع وجوههم.

اليوم يا رسول الله بلغت قمة المجد وبسطت نفوذك على جزيرة العرب وخضع لك الجميع بالسمع والطاعة. أعلم أن موقفا كهذا قد يكون أشد صعوبة من صليل السيوف وتراشق النبال إذا حمي

الوطيس واشتدت المعركة. أنت اليوم ولأول مرة تواجه أحبابك وأنصارك وأتباعك، وبعد هذا النصر المؤزر المجيد وفي أعينهم ذاك العتاب الرقيق. الموضوع اليوم هو تليين القلوب وجبران الخاطر وتعزيز الولاء. ما الذي تفكر به يا أعظم رجل مشى على هذه الأرض، وكيف تكسب قلوب أنصارك؟

قال بلال منبهاً: ها هو رسول الله يستعد للحديث.

بدأت أصغي بكل جوارحي لهذا الخطاب التاريخي الموجز، بكل ما فيه من معانٍ راقية ومشاعر جياشة تأخذ بنياط القلوب وتخشع له الأرواح.

(يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم وجدةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟) قالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل، قال: (ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟) قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المن والفضل، قال: (أما والله لو شئتم لقلتم، فَلَصَدَقْتُمْ، وَصُدِّقْتُمْ، أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً

فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار).

كانت الدموع تنهمر من عيني بغزارة وأنا أراقب مشهد هذا القائد العظيم وهو يتحدث، وأطالع وجوه الأنصار الذين اخضلت لحاهم وهم يرددون: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

نظرت إلى بلال، وقلت: مذهل.. مذهل حقاً! خطاب قصير وموجز ولكنه عظيم الأثر سريع المفعول لصدق لهجته وعظيم بيانه!

ترجل بلال عن فرسه وبدأ يمشي ويجول في المكان بصمت. ثم نظر إليّ وقال: انظر يا صديقي.. ما شهدته اليوم هو درس

عظيم في القيادة الإنسانية وطراز فريد من نوعه عزّ أن تشهد مثله في بطون الكتب أو سير الرجال والفاتحين والأبطال.

أتدري ما هو مراد هذا القائد العظيم في هذه المرحلة المهمة من مسيرته؟ لا شك أن همه استمرار رسالته ووحدة الصف وضمان الولاء، وهذا شيء طبيعي شأنه شأن أي قائد. إلا أن سير القادة والفاتحين تحدثنا عن طرق مختلفة للوصول إلى تلك الغاية. فمنهم من فرض كلمته بهيمنة السلطان وقوة السلاح، ومنهم من عبر بقوة البيان والحجة والبرهان وألجم المعارضة وكمم الأفواه، وآخرون لم يعيروا الموضوع اهتماماً فقد تحقق النصر وزال الخطر، وما الأنصار اليوم إلا قلة بين تلك الجماهير الغفيرة. ولسوف تمضي الحياة وتهدأ النفوس.

أنت اليوم شهدت طرازاً فريداً من القيادة. طرازاً لا يستمد قوته من المنصب والسلطة ولا يستهين بالمشاعر ولا يتنكر لرفاق الأمس ورفقة الطريق.

إن هذا الخطاب على قصره يا صديقي يحوي معان تحتاج إلى كتب ومؤلفات لسبر أغوارها وفهم أبعادها.

اسمعني جيداً يا صديقي. الفكرة من هذا الخطاب هو كسب الولاء والتأييد من خلال العلاقات وليس من خلال المنصب أو القوة. علاقة الجنود بالقائد على أساس من المحبة والثقة والاحترام. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية تناول الخطاب ثلاثة محاور..

1- **الإمتنان:** الإمتنان للقائد.. وهو قائم على ما قدم القائد لأنصاره. فالشعور بالإمتنان يؤدي إلى المحبة. **(ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟).**

2- **الشعور بالأهمية:** فذكّرهم بإنجازاتهم وبطولاتهم، وهي ما كانت لتتم لولا التغيير الذي أحدثه هو في نفوسهم. والشعور بالأهمية يؤدي إلى الاحترام. **(أما والله لو شئتم لقلتم، فَلَصَدَقْتُمْ، وَصُدِّقْتُمْ، أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك).**

3- **الرؤية:** فليست الغاية أساساً جمع الغنائم ولا المكاسب السريعة. بل هي المعاني العظيمة والتي سارت في أوصالهم وعروقهم.. الرسالة والدار الآخرة وحب رسول الله ﷺ. فالرؤية تؤدي إلى الثقة.

(أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار).

نزلت عن صهوة جوادي ووقفت بجوار بلال وأنا أقول: الآن فهمت.. قيادة إنسانية تركز على العلاقات الإنسانية وليس المناصب ولا القوة والسلطان. **قيادة تحقق معاني المحبة والإحترام والثقة. فالمحبة تحصل من خلال الامتنان العميق لما حقق القائد من إنجازات، والإحترام يأتي من خلال شعور الأتباع**

بأهميتهم ولمس التغيير الذي حصل معهم بفعل هذا القائد. والثقة تأتي من خلال وضوح الرؤية والرسالة.

ها هو رسول الله القائد والمربي والمعلم والإنسان العظيم يغادر المكان، ويعود لمواصلة الطريق وعيون المهاجرين والأنصار تتبعه وقلوبهم تقطر بمشاعر المحبة والاحترام والثقة. عليك أفضل الصلاة والتسليم يا حبيبي يا رسول الله.

ورحل الحبيب

كان رأسه مستنداً إلى حِجر عائشة... الحمى تبسط هيمنتها على جسده الشريف، فتنهكه وتذهب وعيه.. تحاول عائشة جاهدة تخفيف ألمه.. إلا أن المشهد يبدو قاتماً، والأفق يحمل غماماً حالكاً!

استعاد وعيه للحظات.. ابتهجت عائشة وبدأت تمسد شعره وتتلمس وجهه الملائكي الطاهر، إلا أنه بدأ يتمتم بكلمات.. قربت أذنها منه وأصغت السمع.. وإذ به يقول: (مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى). وقد كرر الكلمة الأخيرة ثلاثاً.. انقبض قلبها وتصدّعت روحها. علمت أنه كان يخيّر بين الخلود وبين قبض روحه وأنه اختار الرفيق الأعلى! سيفارقها... أجل هذا ما سيحدث... لكن حقاً سيفعل؟ سيتركها وحدها بلا أنيس وبلا رفيق؟ هو الذي كان لها زوجاً وحبيباً وأباً وصديقاً؟

فاطمة في الحجرة تبكي وتنوح.. تبكي الأب المتفاني والجد الحاني.. الرجل الذي ما استندت إلى رجولته قط فمالت بها أو خيبتها.. الأب الذي أفاض عليها بدلاله فتوجها ملكة رغم ضحالة الإمكانيات.. تنظر إليه بقلب ممزق وتقول: واكرب أبتاه!

المدينة المنورة اتشحت بالسواد وتسربلت بالحزن وبدت صامتة مكفهرة. الجميع هنا في حالة صمت ووجوم وترقب. نحن الآن في المسجد النبوي، قرب الحجرة الشريفة، اليوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة 11هـ. المسجد امتلأ بالصحابة الكرام، يبكون بصمت وقد بلغت القلوب الحناجر وضاقت الصدور.

بلال ذلك العملاق الأسمر العظيم.. ما هو بلال الذي أعرفه.. لقد بدا لي مثل الطفل الصغير الذي فجع لوفاة أمه، وقد أخذ زاوية بعيدة عن الناس وأخفى وجهه بين كفيه وعلا صوته بالنحيب حتى كاد يسقط مغشياً عليه.

العيون كلُّها تتجه صوب ستارالحجرة.. سيستعيد قواه وسيخرج عليهم حتماً.. سيطالعهم بابتسامته الوضاءة ويصافحهم ويقول لهم: شدة وزالت! سيقف خطيباً فيهم يحدثهم عن تجربته مع المرض ويعلمهم معاني الصبر على البلاء والشدة. سيحدثهم من جديد بصوته العذب الجميل.

(مكانه كإمام، منبره، مجلسه في المسجد كلها بانتظاره، صوته الرخيم في الصلاة، كلامه السديد في الخطب، ابتسامته التي تجلو الهم، والأهم قلوبنا جميعا.. لقد اشتقنا إليه.. إليه كله، ونحن بانتظاره، لأنه حتماً سيخرج) هكذا كانوا يتهامسون فيما بينهم..

وسط حالة الترقب تلك.. يفتح الستار.. تبرق العيون وترقص القلوب أملاً وتفاؤلاً.. ألا إنها عائشة! قالت غير مصدقة: لقد مات رسول الله! وأغلق الستار!

أغلقت عائشة الستار، وأوصدت كل باب للأمل في رؤية رسول الله حياً بينهم مرة أخرى!

يا الله! كيف للقلوب أن تحتمل وقع الخبر وكيف لها أن تستوعب فاجعة الفقد!

علا نحيب الرجال في المسجد. والرجال لا يبكون إلا عظيماً! بكت المدينة سيدها ونبيها وقائدها وحبيبها. بكت الأب الذي كان يربت على كتفها وقت النصب. والأخ الذي كان يواسيها حال التعب. والفؤاد الكبير الحاني الذي وسعها بيتاً بيتاً وفرداً فرداً وقلباً قلباً!

لقد مات رسول الله! كان على الصحابة الكرام استيعاب هذه الحقيقة الفاجعة.. الموت يعني الفقد، والموت يعني الغياب، والموت يعني الشوق الحارق، والموت يعني جرحاً في القلب لا يلتئم، وكسراً في الروح لا ينجبر!

لقد مات رسول الله! يدخل أبو بكر الحجرة يطالع الجسد المسجى الطيب الكريم ويقلبه.. يبكي ويبكي.. حياة خلفك ومن دونك يا رسول الله تراها كيف تكون؟ يغطي وجهه الشريف بالملاءة ويقول: طبتَ حياً وميتاً..!

وقف أبو بكر يبكي رفيق عمره.. ربما مر ماضيه معه كشريط طويل من الأحداث الجسام.. وحياة مع رسول الله حتماً كانت ملأى بما تتهيب الذاكرة أن تطمسه.. محطات ومحطات، تتكسر على عتباتها معاول النسيان، تبقى لدى المرء لوامع، تثير فيه الحنين لماضٍ لن يتكرر، ولزمن ذهبي لن يُعاد..

عمر في الخارج، يهدد ويتوعد، هذا الجبل الأشم يشهر سيفه في وجه من يتلفظ بخبر الموت! يدور بين الصحابة نافياً الخبر! من كان يتوقع أن هذا السيف الصارم يحمل قلباً مرهفاً إلى هذا الحد! عمر العتيد المتين يتهاوى أمام فكرة الفقد ويرفض التصديق..

يخرج أبو بكر إلى الناس بعد أن استجمع قواه ليقول بصوت أنهكه الحزن: (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت) وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر: 30) ، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن

يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:144)

كيف يمكن للمرء أن يمسح صوت الحزن من صوته؟ كيف للمرء أن يداري الكسر الذي مزق نبراته. إلا أنها الحقيقة.. "إنك ميت وإنهم ميتون"

يتهاوى عمرجالساً ويقول: وكأني لم أتلُ هذه الآية قط!

تمر مراسم الوداع والدفن وكأنها كابوسٌ ثقيلٌ، ينكرون قلوبهم بعد دفنه عليه الصلاة والسلام.. يتهامسون فيما بينهم: هل حقاً دفنّاه؟ هل حقاً وسّدناه الثرى؟ هل حقاً أهلنا التراب عليه؟

ويبكون من جديد حتى يملهم البكاء!

اكتست المدينة بحلة الوجد الجنائزية.. وارتدى المستقبل في أعين أهلها لون السواد.. فلقد أيقنوا أن نهر الصفاء الفردوسي قد غار في الأرض وللأبد..

كانوا يتحسسون قلوبهم بعد دفنه ليتأكدوا أنها ما وقعت معه في القبر! وبينما هم على هذه الحال وإذ بسيدي بلال يعتلي المئذنة

ليناذي للصلاة.. وعند (أشهد أن محمداً رسول الله) يغلبه البكاء وتخنق العبرة أنفاسه. تغرق المدينة كلُّها في بحر من الدموع من جديد.. هذه المرة الأولى التي تشهد المدينة بنبوة رسولها بعد غيابه!

صوت بلال الندي يبدو أسيفاً.. منتوفاً.. متهالكاً حد الوجع! كيف للمرء أن يقنع النحيب بألا يصبغ نغمات الكلمات؟! كيف؟!

رحل الحبيب وكان آخر ما ردده: **(الصَّلاةَ الصَّلاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ).**

رحل الحبيب، واهتزت أركان المدينة حزناً ووجلاً وغماً. فلم يشهد التاريخ أبداً رجلاً حاز محبة أتباعه مثل هذا الرجل. وهذا عروة بن مسعود يقول (إني رأيت من أصحاب محمد العجب، فوالله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلَّك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على قيصر

وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا).

رحل الحبيب.. لكنه سيبقى حاضراً بيننا مع كل إشراقة يوم جديد.

رحل الحبيب.. واسمه حاضر يتردد صداه مع الأذان في كل لحظة وفي كل حين.

رحل الحبيب.. وخلّف رجالاً ركبوا الخيول وخاضوا الوغى، وقادوا الجيوش شرقاً وغرباً، اذهب فاسأل عنهم مروج اليرموك والقادسية ونهاوند وأرض مصر وأرض الرافدين.. سيحدثونك عن خالد وعكرمة وسعداً وعمرو بن العاص والقعقاع.. وسيخبرونك كيف خاضوا المعارك أسوداً لا تلين.

قبورهم شاهدة في أرض الشام والعراق ومصر وحتى أسوار القسطنطينية وقلاع البيزنطيين. هنا يرقد بلال وخالد وعمرو وأبو أيوب الانصاري وأبو عبيدة الصاحب الأمين.

رحل الحبيب.. والراية لا تزال خفاقة يحملها جيل بعد جيل.. والتاريخ يشهد ويروي قصص الإقدام والشجاعة وعزماً كالحديد.. أبطالها صلاح الدين وقطز وطارق بن زياد ومحمد الفاتح حققوا الأمجاد والنصر المبين.

رحل الحبيب.. وعلّم العالم كيف يكون العدل والحكم الرشيد... عمر الفاروق وهارون الرشيد وسليمان القانوني والمعتصم. حققوا العلا والمجد التليد.

لا إكراه في الدين هكذا علّمنا.. وما زالت أجراس الكنائس تقرع وسل النصارى في مصر والشام وأرض فلسطين.

رحل الحبيب... ورّث علماً ومنظومة حضارة تعلو بالإنسان وغدت رحمة للعالمين.. العلم والفقه والأدب والفن والطب والفلسفة أركانها التوحيد حصنها الحصين.. فهناك البخاري ومسلم والشافعي وذاك هو ابن سينا والرازي وابن رشد والبيروني وعلي عزت والمودودي أصحاب العلم والعقل المنير.

رحل الحبيب..وشريعته غدت نبراساً للبشرية وما زالت رحمة للعالمين.

رحل الحبيب، وسيرته العطرة حاضرة تحكي قصصاً عن الصدق والمروءة والشجاعة والإقدام وعزيمة لا تلين. فهو الصادق الأمين وهو سيد المرسلين وهو رحمة للعالمين وقائد الغر الميامين وهو حبيبنا ومعلمنا وشفيعنا يوم الدين.

خاتمة

اختفى وغابت ملامحه وغاب عن الوجود بنفس السرعة التي ظهر فيها لأول مرة. كان يبدو مثل فارس مغوار وبطل أسطوري وهو ممتطياً صهوة جواده، وينطلق صوب الأفق مخلفاً وراءه الغبار المتطاير من رمل الصحراء. بدأ طيفه يذوب بالتدريج حتى اختفى وبلعته ظلمة الليل الحالك. هذا كان آخر عهدي لي بسيدي بلال والذي رافقته في تلك الرحلة التاريخية وتعلقت به حتى أسر كل قلبي وجوارحي. كنت أنظر إلى طيفه وهو يضمحل ويزول في الأفق بعين دامعة وقلب كسير. حق لمثلي أن يحزن لفراق بلال. كيف لا وقد كان لي نعم الرفيق ونعم المعلّم ونعم الناصح الأمين، بلال كان طرازاً مختلفاً من الرجال. وانىّ لك أن تجد اليوم رجلاً مثل بلال. بلال برجاحة عقله وحضور بديهته وسعة صدره وصدق لهجته، دعك من مسحة البراءة واللطف وحسن المعشر. بلال القوي الشجاع الأبيّ النبيل.

لقد انتهى بنا المقام إلى مكاني الذي رأيته فيه أول مرة، أمام الخيمة وحول الحطب والنار. وبعد طول حديث وحوار، وقبل أن أستيقظ من منامي بلحظات، نهض بلال وأمسك بخطام فرسه. نظرت إليه جزعاً وقلت: إنه الفراق؟!!

نظر إليّ بلال وقال: لابد من الرحيل يا محمد!

نهضت من مكاني وارتميت في حضنه كما يرتمي الطفل في حضن أبيه وأجهشت في البكاء. أمسكني بلال من ذراعي وبدأ يتأمل وجهي بابتسامته الطفولية، وقال: إسمعني جيداً! لقد حملتك أمانة عظيمة. عليك أن تعود إلى رفاقك في الخيمة وتعلمهم مما رأيت وشاهدت. هذا دورك الآن يا صديقي! فقلت: أعدك أن أفعل.. أعدك!

ثم استدركت: ولكنك لم تعطني الحلول ولا الأجوبة لما يعترضهم من هموم وتحديات. إبتسم بلال وقال: ما هكذا تورد الإبل يا صديقي! في ثنايا قصصنا هذه منهجية متكاملة ودروس وعبر لا حصر لها. لا يمكن أن أعطي حلولاً جاهزة. فلكل إنسان ظروف

وملابسات خاصة به. على كل منهم أن يتأمل تلك القصص، ففيها الجواب الشافي عن كل موقف قد يتعرض له إنسان، ويسأل نفسه لو كان أكرم الخلق عليه الصلاة والسلام مكاني، ما عساه فعل لقد أضحى الجواب أسهل بعدما عرفنا عن قرب طريقة تعامله مع كافة التحديات والهموم التي تعرض لها. لقد دخلنا إلى أغوارعقله وسبرنا أعماق روحه ووجدانه وضميره! وما علينا الآن إلا أن نعقل ونتدبر ونعمل. على العالم كله أن يعرف من هو محمدﷺ النبي والإنسان والمعلم والمربي والقائد! اليوم في هذا الزمان، ما أحوج البشرية جمعاء أن تقترب أكثر من هذا الإنسان وتنهل من نهره العذب، فوالله إن فيه من الحكمة والإرادة والضمير ما هو كفيل لعلاج كافة مشاكل البشرية!

المراجع

1. تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون
2. السيرة النبوية – دروس وعبر — مصطفي السباعي
3. عبقرية محمد — عباس العقاد
4. الأعظم — كريم الشاذلي
5. مختصر الجامع في السيرة النبوية — سميرة الزايد
6. الإسلام بين الشرق والغرب — علي عزت بيجوفتش
7. السيرة مستمرة — د.أحمد خيري العمري
8. الرسول القائد — محمود شيث خطاب

هذا الكتاب

لعلك عزيزي القارئ تؤمن معي بأن سيدنا محمد ﷺ هو أعظم شخصية شهدتها البشرية، ولكن ألا تلاحظ أننا ركزنا على الوقائع والغزوات، ولم ندرس طبيعة شخصيته كما ينبغي؟ ألا تعتقد أن رب العالمين إنما اختاره من بين سائر البشر لما توافرت فيه من رجاحة العقل وعبقرية الأداء ونقاء القلب ما لم يبلغه أحد من البشر؟ وأن تلك الخصال كان لها دور هام في الإنجازات العظيمة التي حققها والقرارات الحاسمة التي اتخذها؟

نحن بحاجة حقيقة لكي نقترب أكثر من شخصية خاتم الأنبياء وسيد البشرية، بحاجة إلى أن نسبر أغوار هذا الإنسان العظيم، ومعالم شخصيته وطريقة تفكيره.

في هذا الكتاب يأخذك المؤلف في رحلة افتراضية مع هذا الإنسان العظيم، نتوقف فيها على أهمل المواقف التي تعرض لها، ونرى معالم وجهه ونحلل مشاعره وخلجات قلبه وتوارد أفكاره. وما هي إلا اجتهاد من المؤلف، علها تساعدك عزيزي القارئ على التعلم من تلك الشخصية العظيمة لتتعامل مع ما يواجهك من تحديات في حياتك اليومية، وبأسلوب قصصي شيق يناسب روح العصر.

Tel. +962 7 9077 8808
bushnaq2010@gmail.com

د. محمد بشناق

طبيب الأمراض الباطنية.

حاصل على الزمالة الأمريكية في الطب التلطيفي وعلاج الألم.

لديه اهتمام خاص في الإرشاد الروحي.

لديه العديد من المؤلفات في هذا العلم، وجميعها متوفرة للتحميل مجاناً في موقعه الإلكتروني.